538

عبير

HARLEQUIN

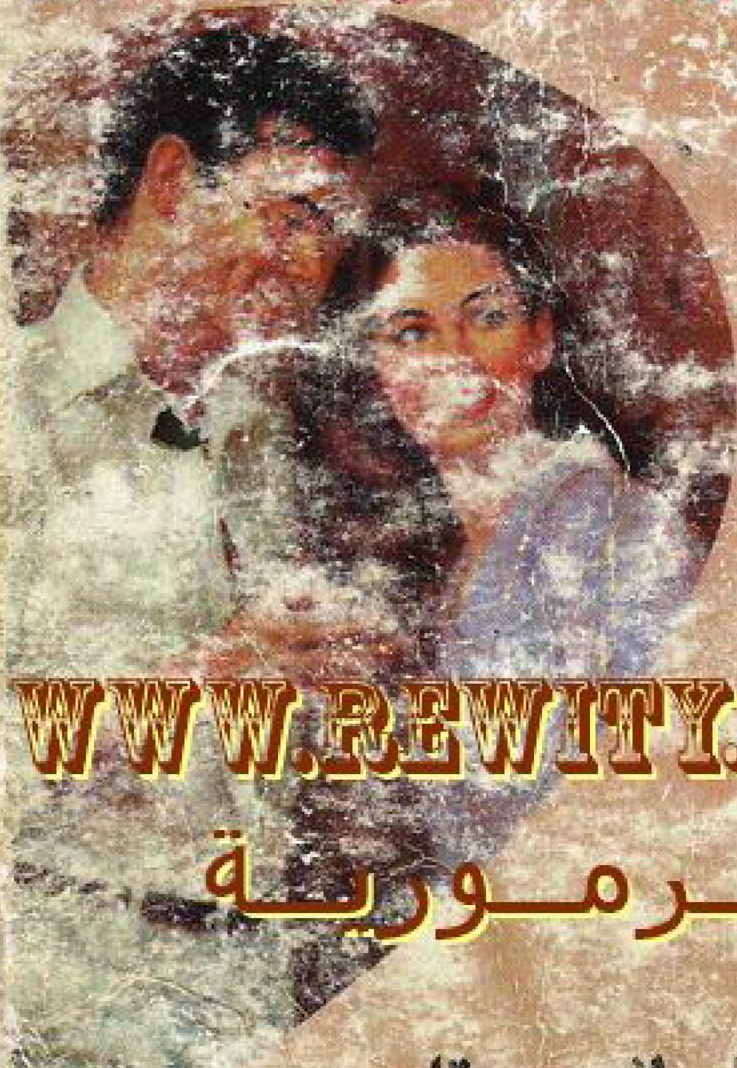

WWW.REWITY.COM

مرمورية

حبيبان لا صديقان

هيلين بروكس

حبيبان لا صديقان

هيلين بروكس

كان زواج نيمي فوربس من بلايد حلماً استحال حقيقة. ولكن العالم قد انهار حولها ذات يوم عندما اكتشفت سراً كان على وشك أن يدمر كل شيء. كانت تحب بلايد كما كان هو أيضاً يحبها... ولكن كان عليها أن ترحل، أن تهجره، وذلك لتحمي نفسيهما من معرفة ذلك السر الذي كان حرياً بأن يدفع بهما إلى حياة التعاسة والأحزان. ولكنها فقط نسيت شيئاً واحداً... نسيت عزيمة رجل يحب...

لبنان ٣٠٠٠ ل.ل - سوريا ٦٠ ل.س - الكويت ٧٥٠ فلس - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ دراهم - السعودية ١٠ ريالات - الامارات ١٠ دراهم - الاردن ١ دينار - مصر ١ جنيه

«ألا يمكنك ان تترك هذه الأمور؟»

فابتسم بلايد ببرود وهو يجيبها قائلاً: «اظنك تعنين نفسك بكلمة الأمور هذه. انك زوجتي، يا إيمي.»

فقالت إيمي كاذبة بجرأة: «انك لا تخيفني. وأنا لا أحب التهديد.»

«إذن، فاعتبريه تحذيراً ـ بلاغاً لمن يهمه الأمر ـ انك بالنسبة إليّ ملك لي، وليس ثمة من يمكنه ان يسرق ما يخصني.»

www.rewity.com
روايتي

هيلين بروكس

تعيش هيلين بروكس في نورثامبتوشاير وهي متزوجة ولها ثلاثة اولاد. وبما أنها ربة بيت وأم، فإن أوقات فراغها قليلة، ولكن هواياتها تتضمن القراءة، السباحة، العناية بالحديقة والخروج يومياً بكلبيها العزيزين للنزهة. وقد تحقق طموحها بالكتابة عندما امسكت بالقلم لأول مرة وكانت في الأربعين من عمرها، لترسل النتيجة إلى دار نشر ميلزوبون.

٥٣٨
قلوب عبير
khouloub Abir 538

حبيبان لا صديقان

هيلين بروكس

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

انتبه ألا تبتاع هذه الرواية من غير غلاف لأنها قد تكون مسروقة، فيجب إبلاغ الناشرين لأن الكتاب الذي لم يبع، يجب إتلافه، فأي من الكاتبة أو الناشرين لم يتقاضوا ثمناً لهذه النسخة المسروقة.

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

LOVERS NOT FRIENDS

Copyright © by Helen Brooks 1994

ISBN 0-263-78765-6

Mills & Boon first edition October 1994

الطبعة العربية الاولى عن مؤسسة النحاس ١٩٩٥

عنوان الطبعة العربية

حبيبان لا صديقان بقلم هيلين بروكس

ترجمة: بلقيس حوماني

سلسلة قلوب عبير ٥٣٨

حقوق النشر باللغة العربية محفوظة ومحصورة في جميع البلدان لمؤسسة النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات - بيروت (دار م. النحاس) بترخيص من هارلكوين انتربرايزس ليمتد (Harlequin Enterprises Limited).

جميع الحقوق محفوظة، باستثناء استعماله في أي مرجعية، يمنع استنساخ هذا الكتاب أو استعماله كلياً أو جزئياً بأي شكل وبأي جهاز من الأجهزة الالكترونية أو الميكانيكية أو الوسائل الأخرى، المعروفة الآن أو التي يتم في ما بعد اختراعها، بما في ذلك الوسائل الزيروغرافية والتصوير والتسجيل أو تخزين أي معلومات منها أو استعادتها بأي جهاز من الأجهزة، من دون الحصول على إذن من الناشر.

كل شخصيات هذا الكتاب ليس لها وجود خارج خيال الكاتبة، وليس لها أية علاقة بأي شخص قد يصدف ويتشابه اسمه مع أحد الأسماء في الكتاب ولا تستند شخصيات الكتاب، أو الأسماء التي تحملها إلى أية شخصية تعرفها، أو لا تعرفها الكاتبة، بل كل أحداث الرواية هي من نسج الخيال الصرف.

العنوان: مؤسسة النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات. بيروت. لبنان شارع فردان بناية رضوان الطابق الرابع. ص.ب: ١١/٩٧١٨. فاكس ٧٤٣٦٣١ (٠١)، هاتف: ٧٤٣٦٣٣، ٧٤٣٦٣٤ (٠١) ٢١٦٢٩٣ (٠٣)، سجل تجاري: ٧٥١٠ - بيروت، تسجيل العلامات التجارية في وزارة الاقتصاد دار م. النحاس النشر ٥٩٤٣٩

الفصل الأول

«انك تعلمين أنني لن ادعك تذهبين أبداً. انني افضل ان اقتلك على ان ادعك تذهبين إلى رجل آخر.»

«بلايد...»

«لا أريد استعطافاً. انك لي يا إيمي، وستبقين لي على الدوام...»

«انك مجنون...»

«اتعنين أنني مجنون بك؟ ربما...» وكانت العينان السوداوان تلتمعان بقسوة وهو يتابع قائلاً: «ولكنك تعرفين جيداً ان ليس من عادتي إلقاء التهديد جزافاً. انك ستدفعين ثمن فعلتك هذه. صدقيني ان بإمكاني ان اجعلك تتمنين لو لم تعرفيني. وعندما ينتهي الدفع، ستبقين زوجتي... زوجتي، يا إيمي.» كانت ملامحه الوسيمة وهو ينطق بهذه الكلمات كأنها نحتت من الصخر.

«كلا.» وصدرت عن إيمي هذه الصرخة ممدودة ممزقة وهي تستوي جالسة بعنف في سريرها الضيق. لقد كان هذا حلماً... حلماً فقط. وجلست في سريرها القرفصاء تحيط ركبتيها بذراعيها تاركة دقات قلبها العنيفة تهدأ شيئاً فشيئاً. إنه ليس هنا... إنه لم يعثر عليها... بعد. كان الحلم مازال اقوى من ان يسمح لها بأن تدفع عنها من مخاوف النهار. إنه سيعثر عليها. وهزت رأسها تدفع عن وجهها الذي يبلله العرق، خصلات شعرها الذهبية وهي تتأوه. لقد كانت مجنونة في هربها بهذا الشكل،

كان عليها أن تفكر في الأمر جيداً وتخططله. ذلك أنه ليس هناك من أساء إلى بلايد فوربس وأفلت من العقاب. لا أحد على الاطلاق، فكيف بزوجته الشابة التي لم يمض على زواجه منها ستة اشهر؟ ذلك ان نفوذه يمتد إلى كل مكان في المنطقة، فماذا بإمكانها ان تصنع؟

نهضت من سريرها ومشت في الغرفة إلى حيث جهاز صنع القهوة فضغطت على زر الاشعال، ثم توجهت نحو النافذة الضيقة المستطيلة تطل منها على الجدار الحجري الذي يحيط بالحديقة المهملة التي استطالت فيها النباتات والأعشاب، لتلقي بنظراتها إلى ماوراء ذلك من حقول خضراء ممتدة على مرمى النظر. وكان شعاع الفجر الباهت يملأ تلك الغرفة الصغيرة.

بلايد... ولأول مرة منذ اسابيع، اخذت تفكر بجدية وهي تشبك يديها امام صدرها بشدة. كان بلايد فوربس، احد رجال الأعمال غير العاديين في اميركا. رجلاً عنيفاً مفعماً بالحيوية والنشاط، ومعروفاً بأنه قاسي، ومع ذلك... وأغمضت عينيها والأفكار تذهب بها في كل اتجاه... لقد كان معها في غاية الرقة والحنان، والحب والتفهم، ما لم تحلم قط بإمكان وجوده في مثل هذا الرجل المتغطرس الخشن الرجولة. وترنحت وقد ملأ العذاب كل جارحة فيها. كم كانا سعيدين، متحابين.

صرخت بصوت عالٍ في تلك الغرفة الخالية وقد برح بها الألم: «كفى، يا إيمي! ان تبرير هذه الأمور لن يفيد بعد ما انتهى كل شيء، إذ رغم حبها العظيم له، لم يكن امامها خيار آخر سوى تركه.

عندما استعدت للخروج للعمل ذلك الصباح، كان الجو الرطب الممطر قد تغير فجأة، كالعادة في انكلترا، إلى جو صاحٍ مشرق بأشعة الشمس. وكان هواء اقليم يوركشاير النقي المثقل بشذا الأزهار البرية ورائحة الأرض المغطاة بالأعشاب، يملأ الغرفة مذكراً إياها بقدوم الصيف والذي سيكون أول صيف يمر عليها وهي متزوجة...

كانت ماتزال مستغرقة في افكارها تلك، عندما وصلت إلى المطعم الصغير الذي تعمل فيه، وكانت الساعة الواحدة بالضبط. وسرعان ما أحال العمل المحموم في المطبخ، ذلك القلق الذي ينهشها، إلى الألم الهادىء الذي اعتادته.

فكرت بهدوء في انها كانت محظوظة في العثور على هذا العمل. نظرت في أنحاء غرفة المطعم المشرقة والتي لا تتسع لأكثر من اشخاص قلائل. لقد تملكها الذهول عندما وصلت إلى يوركشاير ديلز منذ ثلاثة اشهر، وذلك للخطوة الهائلة التي اقدمت عليها، لأنه لم يكن لديها أي فكرة محددة عن مستقبلها عدا عن الاختفاء عن أنظار بلايد عدة اسابيع قبل ان تفكر في السفر، ربما إلى خارج البلاد.

ولكن السلام والأمن اللذين يسيطران على جو هذه المنطقة ما لبثا ان نفثا روعتهما في قلبها المعذب. وعندما نفدت نقودها ارشدتها صاحبة نزل الضيافة هذا الذي تقيم فيه، إلى هذه الوظيفة. ذلك انها لم تشأ ان تنفق قرشاً واحداً من الحساب الذي كان بلايد وضعه باسمها في المصرف. لقد انتهى ذلك الجزء من حياتها، وهكذا اصبح من الضروري ان تعيل نفسها من الآن فصاعداً.

وكانت مساعدة الطاهي التي قبلها، قد أخذت حسابها

وهربت مع مندوب مبيعات، تاركة زوجها وأولادها. وهكذا رحب صاحب المطعم بإيمي حتى قبل ان يعلم انها امضت ثلاث سنوات في الجامعة تدرس علم التغذية.

وهكذا بقيت، واخذت تفكر متأملة، في غرابة الحياة، وهي توزع الحساء. فقد كانت وظيفتها هي وسيلة التعارف بينها وبين بلايد، لتصبح الآن الوسيلة التي تساعدها على العيش بعيداً عنه، وهي لهذا بحاجة إلى ساعات اطول وعمل اكثر اجهاداً مما يظن رئيسها في العمل.

واستفاقت من تأملاتها هذه على صوت رئيسها آرثر يخاطبها برفق قائلاً وعلى ملامحه علامات التساؤل: «هل كل شيء على ما يرام، يا إيمي؟ هل يضايقك تقلب الجو؟»

أجابت وهي تبتسم بسرعة: «كلا، انني بخير. انها احلام اليقظة فقط.» وأنهت وضع اطباق الحساء على الصينية، ثم نهضت لتترك المطبخ إلى غرفة الطعام.

كان آرثر رجلاً رقيقاً حريصاً على عدم التدخل في ما لا يعنيه، وهذا ما كان يعجبها فيه. ولا بد أنه وكذلك صاحبة المنزل الذي تقيم فيه، عجبا لقدومها المفاجىء إلى مجتمعهما الصغير هذا. ولكنهما لم يوجها إليها أي سؤال، مباشر أو غير مباشر، حتى عندما كانت الهالات الداكنة ترتسم حول عينيها.

وكانت قد وضعت لتوها طبقي حساء وسلة خبز على مائدة جلس إليها شاب وفتاة، عندما اهتز جرس باب المطعم يعلن وصول قادم جديد. ولم يساورها، وهي تستدير لترى القادم، اي شعور غامض أو إنذار من حاسة سادسة وما أشبه، بأن توازنها النفسي أوشك أن يطير شعاعاً.

قال لها بصوت بالغ الهدوء، وهو يرسل إليها من عينين ضيقتين نظرة قاتلة: «مرحبا، يا إيمي.»

فهتفت وقد شحب وجهها: «بلايد...» وانتبهت للحظة واحدة، إلى ذلك الفيض من الحبور الذي انتابها لرؤيته مرة أخرى، والذي كان غريباً مضحكاً في مثل ظروفها، لتعود فيستبد بها الذعر لهذا الموقف ما شعرت معه بأنها على وشك الإغماء.

ويبدو أن الشعور نفسه ساوره هو أيضاً، إذ اندفع إليها وارغمها على الجلوس على مقعد، وهو يقول بصوت خشن: «لا تدعي الدهشة تتملكك، فأنت تعلمين أنه كان لا بد لي من العثور عليك مهما طال الوقت.»

فعادت تهتف وهي لا تجد سوى اسمه تنطق به: «بلايد...» ذلك ان ذهنها قد تبلّد، مافقدت معه ترابط افكارها.

فأجاب وعيناه السوداوان اللامعتان تحدقان في عينيها الزرقاوين بقسوة: «نعم، بلايد نفسه. والآن انهضي.» وكانت ملامحه الوسيمة بقسوة وجمود الصوان، تماماً كما بدا لها في الحلم... لا بد ان حلمها ذاك كان تحذيراً لها بعد إذ أحست بأنه قريب منها. كان عليها ان تكون حذرة...

وحدقت به تسأله دون أن تقوى على الحراك: «ماذا قلت؟»

فأجاب وقد بدت في عينيه نظرة مخيفة: «قلت انهضي.»

عند ذلك سمعت حركة خلفها عند المائدة التي يجلس إليها الشاب والفتاة، وسرعان ما ظهر الشاب بجانبهما وهو يقول: «اسمع، يا هذا.» بدا وكأنه في الواحد والعشرين من عمره، وكان واضحاً انه خائف حتى الموت وهو يوجه حديثه إليها قائلاً: «هل هناك ما يضايقك يا آنسة؟» وزاد

شحوبه بعد أن ألقى نظرة على ملامح بلايد المتجهمة العنيفة وتابع قائلاً لها: «هل استدعي احدا؟»

فأجابته: «كلا.»

اختفى صوتها وبلايد يزمجر في ذلك الجو المتوتر، مخاطباً الفتى دون ان ينظر إليه: «لا تتدخل في ما لا يعنيك.» ولم تكن عيناه قد تحولت عن وجهها منذ دخوله المطعم.

ولكن الفتى عاد يقول: «اسمع. اظن انها لا تريد ان تتحدث إليك...»

فقاطعه بلايد وهو ينظر بغضب إلى وجهه الشاحب: «عد إلى كرسيك أو اجلسك عليه بنفسي.»

ورغم هول الموقف، شعرت إيمي بالإعجاب بذلك الفتى الذي لم يهرب. ولكن، ما ان وقفت حتى رأت لمحة من الرعب تعلو وجهه ما جعلها تشعر بغضب مفاجيء من بلايد دفعها إلى ان تنهره قائلة: «كفى. لا تخيفه.»

فتصلب جسد بلايد وهو يقول بجفاء: «أخيفه؟» فتملكتها الخشية، والتفتت إلى الفتى تقول له بسرعة: «انني بخير. ارجوك ان تعود إلى مائدتك.»

فسألها وفي وجهه صراع بين الارتياح وكبرياء الرجولة: «هل انت متأكدة؟» ولكن الارتياح هو الذي انتصر في النهاية، فعاد ادراجه إلى صديقته التي كانت تنتظره وهي تتابع ما يدور امامها باهتمام بالغ.

وعادت إيمي تنظر إلى بلايد الذي كان يزيدها طولاً باكثر من عشرين سنتمتراً، ثم سألته: «ما الذي تريده، يا بلايد؟»

فاجاب: «لا تحاولي تجاهل الأمر، فأنت تعلمين تماماً ماذا أريد.»

كان الغضب العنيف الذي يكسو ملامحه جديداً عليها. انها لم تره قط من قبل غاضباً. فقد كان يبدو إما بارداً كالفولاذ عندما يضايقه أحد وإما في منتهى التهكم والسخرية في بعض الحالات. ولكنه كان على الدوام متمالكاً لنفسه وكأن الأمر مجرد عبث ولهو. وكانت عيناه السوداوان تلتهبان غضباً. وهو يقول: «أتأتين معي بكامل ارادتك ام احملك؟»

أجابت: «إنني اعمل هنا وليس بإمكاني ان اغادر...»

فقاطعها قائلاً: «بل بإمكانك ذلك يا إيمي.» وكان مايزال لطريقته الخاصة في نطق اسمها، ذلك التأثير الذي يجعل ركبتيها تتهالكان، وتابع قائلاً: «وهذا ما عليك عمله بالضبط.»

فقالت: «انني لن اعود إليك يا بلايد...»

فقاطعها قائلاً: «ومن طلب منك العودة؟» وزاد تجهم وجهه وهو يتابع قائلاً: «هل تظنين حقاً انني اريدك ان تعودي إليّ بعد الذي فعلته؟ وانني ما زلت اهتم بك؟ ان معنى ذلك انني اكبر مغفل في العالم. ولكنني اريد ان اتحدث إليك وأريد ان اعلم اين هو. اتفهمينني؟ سألقنكما انتما الاثنان، درساً لن تنسياه ابداً.»

فسألته باستغراب وهي تكرر كلامه: «اين هو؟ من تعني؟»

فاجاب: «لقد سبق واخبرتك يا إيمي، فلا تحاولي المراوغة.»

ان عليها ان تتحدث إليه. وعادت تحدق في وجهه الأسمر الذي ارتسمت عليه إرادته الحديدية التي حوّلته من إبن مهندس في منجم، إلى مليونير عصامي وذلك في سن الخامسة والثلاثين عندما قابلته لأول مرة منذ عام. كانت

صلابته خرافية كما كان عناده، أشبه بالصخر، إذا هو أراد شيئاً. نعم، ان عليها ان تتحدث إليه، وكلما اسرعت في الإنتهاء من هذا الأمر، كان افضل.

وأشارت إلى باب المطبخ قائلة: «سأسأل آرثر، رئيسي في العمل، عما إذا كان بإمكاني الغياب لفترة. انه هناك.»

«افعلي ذلك. سأسمح لك بدقيقة واحدة بالضبط.»

وبعد دقيقة خرجت مع بلايد إلى شارع القرية القديم. وتنفست بعمق تملأ رئتيها من ذلك الهواء النقي قبل ان تتبعه إلى سيارته.

وسألته بانفعال: «اما كان بإمكاننا ان نتمشى؟ كنت افضل...»

فأجاب ببرود وهو يفتح لها باب السيارة: «انني لست مهتماً بما تفضلينه، وعليك ان تقومي بما يطلب منك.»

انه لم يخاطبها بهذه اللهجة قط من قبل، وفجأة شعرت بنفسها تثور على طبيعته المتسلطة المتغطرسة تلك والتي ازدادت منذ عادت فرأته مرة أخرى. فقالت: «يجب ان لا تصدر اوامرك إليّ بهذا الشكل يا بلايد.» كانت تحاول، وهي تقول هذا، ان يبدو صوتها ثابتاً بارداً، ولكنها لم تستطع ان تخفي نبرة الألم التي كانت تكمن فيه، وتابعت تقول: «لقد رفعت دعوى طلاق، كما تعلم، ولهذا، ليس لك الحق في...»

فقاطعها بصوت قاسٍ عنيف: «تباً لحقوقي. لم يسبق قط ان تركت حقوقي، كما تسمينها، تتدخل في ما اريد ان اقوم به. ومن حسن الحظ انها ليست مشكلة في هذه الحالة. فأنا لا اريدك يا إيمي، إذا كان هذا يريحك نوعاً ما. فأنت لا تجعلينني اشعر الآن سوى بالاشمئزاز والسخرية. هل فهمت؟»

ولم تستطع ان تلومه، فقد تسببت لنفسها بذلك، ولكن

العذاب الذي تحس به كان يضيق منها الأنفاس. كانت قد قررت ان تحمله على نسيانها او حتى كراهيتها، إذا كان هذا ييسر الأمر، وكل ذلك كان قبل ان تعود فتراه مرة اخرى. انها لا تحتمل ذلك، لا تحتمله مطلقاً... سألته بصوت متهدج: «ولماذا إذن، جئت تفتش عني؟»

أجاب: «لأنك، سواء اعجبك هذا أم لا، مازلت زوجتي وأنا ارفض بتاتاً ان اسمح لك بتركي دون اي ايضاح. ثم هنالك مسالة العقوبة. والآن اصعدي إلى السيارة، يا إيمي، وابقي فمك الجميل الخداع هذا مقفلاً إذا كنت تعرفين ما يصلح لك.» وكان صوته يتضمن نبرة خطرة، رغم رقته، بينما عيناه في قسوة الفولاذ.

قاد بها السيارة خلال القرية مجتازاً مكان السوق المبلط بحجارة ملساء ومتحفاً أثرياً من طراز القرن الثالث عشر، صاعداً التلة الشاهقة. ولم يعد إلى الكلام، وبقي مركزاً اهتمامه على الطريق الضيق الملتوي ذي الجدران الحجرية التي كانت قديمة كالزمن. وبعد دقائق طويلة متوترة، جازفت بإلقاء نظرة من تحت اهدابها على ملامحه الخشنة الوسيمة. والتوى قلبها ألماً وهي تتأمل لونه الأسمر وأنفه المستقيم وشعره البني اللامع. ففي الأيام الأولى التي تلت تركها له، كانت صورته محفورة في ذهنها بوضوح مؤلم، ولكن تلك الصورة كانت قد ابتدأت تبهت بعد إذ مر على افتراقهما شهور ثلاثة. لشد ما احبته، ومازالت، وهي لن تنفك عن حبه...

وقطع عليها افكارها وهو يوقف السيارة قرب بوابة صغيرة تطل على مروج خضراء فسيحة بقوله: «حسناً،

سنتكلم الآن في كل شيء... كل شيء يا إيمي، فحذار إذا اكتشفت انك تكذبين علي فسأجعلك تندمين على اليوم الذي عرفتني فيه. انني اريد الحقيقة مهما كانت بشاعتها. هل فهمت؟»

وخفق قلبها خوفاً وهي تفكر وقد غمرتها التعاسة، بأنها فهمت جيداً. ولكن الحقيقة كانت شيئاً لا يمكنها البوح به أبداً. انها لا تحتمل رؤية وجهه بما سيرتسم عليه من شفقة ويأس إذ يعلم ما يخبئه لها المستقبل ما لن يستطيع هو إزاءه شيئاً. ومن ثم هنالك انتظار حدوث ذلك الشيء المخيف. نعم، لقد كان الحق معها إذ فكرت في ان تتركه. ان عليها ان تعالج الأمر، حالياً، بأي شكل كان. ولكن كيف تبدأ؟ وهل بإمكانها ان تنظر في وجهه وتخبره انها لا تحبه، دون ان تجعله يدرك انها تكذب؟

وقال بصوت جامد النبرات: «ربما يساعدك على بدء الحديث ان اقول لك انني على علم بأمر جون ديفس. لقد اخبرني عنه المخبر الخاص الذي استأجرته للبحث عنك، ولسوء الحظ أن صديقك هذا لم يكن موجوداً حين ذهبت لزيارته.»

فسألته بصوت خافت: «هل ذهبت إلى منزل جون؟ ولكن لماذا...؟»

فالتفت إليها بعنف وهو يقول: «لا اريد المراوغة يا إيمي. منذ متى تعرفينه ومتى ابتدأت علاقتكما؟»

فقالت: «ابتدأت علاقتنا؟» وسمعته يصرف بأسنانه. وأخذت تتساءل، اتراه يظنها تركته لأجل جون؟ جون ذلك الشاب الظريف السمح الطبع والذي امتدت صداقته لها سنوات؟

وعاد بلايد يقول بصوت كقسوة الفولاذ: «انني اتذكر اسمه من قائمة المدعوين لحفلة زفافنا، ولكنه لم يحضر. وقد فهمت الآن السبب في ذلك.»

فقالت: «انه لم يحضر لأنه كان في اسبانيا اثناء السنوات الثلاث الأخيرة، إنه...»

فقاطعها قائلاً: «انه سيصبح ميتاً حالما احظى به.»

فقالت: «ليس لجون أي علاقة بأمرنا هذا. لقد ارسل إليّ منذ اشهر قليلة بطاقة بريدية عليها عنوانه الجديد ليخبرني عن عودته إلى انكلترا. وعندما تركت البيت كان منزله هو المكان الوحيد الذي كان بإمكاني اللجوء إليه. ولكنني لم أمض معه حتى يوماً واحداً، إذ أنه جعلني اتصل بسيدة في القرية لديها نزل تستقبل فيه...»

فقاطعها قائلاً: «السيدة كوكس اعرف ذلك. واعرف أيضاً انك ترينه بانتظام تقريباً. فلماذا لا تريحينني وتريحين نفسك وتعترفين بالأمر؟»

نظرت إليه بصمت بينما ابتدأ عقلها يعمل. اترى من الأفضل ان تجعله يظن انها تركته لأجل جون؟ وشعرت به يتحرك بجانبها بصبر فارغ، فاستدارت بسرعة لتتكلم. كانت قد ذكرت في الرسالة التي تركتها له عند مغادرتها المنزل، انها اكتشفت ان زواجهما كان غلطة رهيبة وأنها قررت ان تنهيه، وأنها لا تريد منه شيئاً، وأن إجراءات الطلاق يجب ان تبدأ فوراً. ولما كان رجلاً ذا كبرياء عنيفة ولا يعرف الصفح، فقد يكون في جعله يظن انها تركته لأجل رجل آخر، ما يسبب لكبريائه صدمة قد تضع النهاية لكل ما بينهما، وهذا هو ما تريده بالضبط.

وهكذا قالت بهدوء: «لا شأن لك بعلاقتي مع جون. إنني لا...»

أخذ ينظر في وجهها وهو يصرف بأسنانه غيظاً، ثم قال: «ليس ثمة من يمكنه ان يتصرف معي، يا عزيزتي بالشكل الذي تصرفت انت به. وعندما أمسك به...»

قالت بكل ما استطاعته من هدوء: «هذه سخافة. ان الحاقك الأذى بجون لن يفيد بشيء، فأنا لن أعود ابداً...»

فقاطعها بعنف: «ومن قال انك ستعودين؟ انك سلعة قذرة وأنا لا أحب أن اتخذ إلا الأفضل.» فأدركت أن مهاجمته لها بهذا العنف هو نتيجة الألم الذي يشعر به، إذ بعد كل ما كان بينهما، وبعد كل احلام المستقبل تلك... وكان هو يتابع قائلاً: «وعندما أنتهي منه، لن ترغب فيه امرأة قط بعد ذلك. وهذا وعد مني لك.»

فهتفت: «بلايد...» وسكتت فجأة. ماذا بإمكانها أن تقول الآن؟ ها قد اتخذت الأمور بعداً لم يكن بالحسبان. ولكنها لن تدع جون يتحمل نتيجة عمل لا دخل له فيه، وكان كل الذي فعله هو توفير الملجأ والراحة لها. وقالت: «ان جون هو صديق لا اكثر.»

فأجاب: «هذا مؤكد.» وفتح باب السيارة فجأة، ونزل منها يخطو فوق حشائش الربيع وهو يتابع قائلاً: «انني بحاجة إلى هواء نقي. ثمة رائحة كريهة في السيارة.»

فقفزت من السيارة وهي تقول بلهفة: «ارجوك أن تستمع لما أقول، يا بلايد، إن ما قلته لك صحيح.»

فاستدار نحوها بعنف جعلها تتراجع نحو السيارة بذعر، وقال: «استمع اليك؟ استمع اليك يا حلوتي؟ يا لك من تافهة غبية. هل تظنين ان حبيبك مختبىء في مكان أمين؟ ما

أصدق كلامك. ان يوماً لم يمر عليّ، طوال الأشهر الثلاثة الأخيرة لم اتمن فيه لو كنت أنت رجلاً لكي اعاقبك بنفسي، ولكن...» وارتسمت على شفتيه ابتسامة مرة وهو يتابع قائلاً: «هنالك طرق عديدة لسلخ جرذ.»

فعادت تهتف: «بلايد...» واختفت أنفاسها وقد كان يصعقها الخوف، ولكنها تابعت تقول: «الا يمكنك ان توافق على الطلاق، ثم تترك كل شيء عند هذا الحد؟»

فقاطعها قائلاً: «ستحصلين على الطلاق الذي تريدين.» وهنا انقض فوق رأسيهما، من شجرة سنديان ضخمة، غرابان كان نعيقهما ملائماً تماماً لهذا الموقف بينهما وعندما اخذت عينا بلايد تتابعان الطائرين، أجفلت هي لملامحه المدلهمة تلك، ولكن كان عليها القيام بهذا الأمر. ذلك انه ليس امامها طريق آخر. فذلك سيؤلمه الآن، ولكن بقاءها معه سيدمره في النهاية. ليس امامها طريق آخر.

وعندما استدار يواجهها قائلاً: «لماذا، يا إيمي؟» كان هو نفسه بلايد الذي كان يرسل الرعب في نفسها خلال تلك الكوابيس المفزعة التي كانت تحفل بها لياليها الطويلة التي كانت تمضيها في التقلب والأرق. ولكن مازال في وجهه لمحة من بلايد الذي تعرفه. بلايد الرقيق والذي لا حدّ لحنانه. ان بإمكانها ان تواجه ذلك الغريب العدائي الذي ينفث ناراً، ولكن ليس بلايد هذا... ابداً. وكان هو يتابع قائلاً: «ما الذي جرى؟ هل حدث خطأ ما؟ لقد كنت أظن ان كل شيء كان...» وسكت فجأة، وهو يستدير بخشونة ليعود فيحدق في تلك التلال البعيدة، ثم يتابع قائلاً: «ولكنني لم اكن اعرفك، رغم ان كل شيء كان يقنعني بالعكس، كل شيء.»

وهتفت في أعماقها، آه، يا حبيبي. وعندما نظرت إلى رأسه من الخلف حيث أشعة الشمس قد أحالت لون شعره البني اللامع إلى مثل الذهب، ادركت انها تعاني الآن أسوأ ما يمكن أن يمر عليها في حياتها. فالكابوس المستمر الذي سيشكل مستقبلها، لم يكن ليقارن بالعذاب الذي يقبض على روحها قاتلاً فيها كل احساس بالفرح أو السعادة. انها ستعيش من الآن فصاعداً، ولكنها لن تكون حية حقيقة. ذلك أن حبها الكبير له لم يكن ليسمح لها بجره معها إلى تلك الهاوية. إنه، بهذه الطريقة، يمكنه ان ينساها في النهاية ومن ثم يتابع طريقه في الحياة. نعم، سينساها. فهو ذو عزم وإرادة. سينساها في الوقت المناسب، وهنالك نساء كثر، على استعداد تام للزواج منه.

كانت عيناها جافتين، فألمها كان اكثر من أن يستدر الدموع. وأخيراً، قالت ببطء وكأنها ترغم الكلمات على الانطلاق من بين شفتيها المتصلبتين: «انه لا يعدو ان يكون أحد تلك الأمور. هذه هي الحياة.»

وجاءها صوته يقول: «إيمي.» ولم تكن قد انتبهت إلى انه كان قد استدار يحدق فيها. وعندما التقت عيناهما، اسرعت بتغيير ما كانت تعبر عنه ملامحها، ولكنه تابع قائلاً: «اتعنين أنه لا يوجد عندك شيء غير هذا؟ شيء لا تريدين ان تخبريني به؟»

فحدقت فيه وقد جف فمها وتصاعدت دقات قلبها. كان عليها أن تكون حريصة في كل لحظة. فهو قوي الحدس، بالغ الفطنة، يمكنه أن يقرأ خلف الظواهر ويكشف أدق ضعف في الأمر. وهذا ما جعله بمثل هذه القوة والمناعة

في دنيا الأعمال. وها هوذا الآن يستجمع معها كل إمكانياته تلك، فعليها أن تكون على حذر... حذر بالغ.

وقالت بلهجة متوترة: «أليس في ما حدث كافياً، أم انك تريد أسباباً فاضحة؟ حسناً، انني آسفة، فليس بإمكاني ارغامك على القبول، يا بلايد. ان عليك أن تكرهني لما عرفت، وليس عندي اكثر من ذلك.»

فأخذ يحدق فيها لمدة دقيقة كاملة، وعيناه تتفحصان وجهها بعزم جعل انفاسها تتوقف، ثم هز رأسه ببطء وقد بدت شفتاه كخطين قاسيين في وجهه المتصلب، ثم قال بسخرية لاذعة: «لا يمكن أن يكون هناك اكثر من هذا، أليس كذلك... منذ دقيقة فقط...»

وسكت فجأة، ثم أشار إلى السيارة بعنف قائلاً: «اصعدي. لقد سمعت اكثر من الكفاية.» ولم يتبادلا الحديث طوال رحلة العودة. وعندما وقف امام مطعم آرثر، مال نحوها وفتح لها باب السيارة وهو يقول: «وداعاً، يا إيمي.» وكان صوته فاتراً خالياً من المشاعر.

فأجابته: «وداعاً.» ولم تعرف كيف خرجت من السيارة، ولكنها بذلت كل ما تملكه من إرادة لكي تسير مبتعدة عنه. وفتحت باب المطعم دون أن تنظر خلفها، ما جعل السيارة تنطلق بعنف وهديرها يصم الآذان. بينما اسرعت هي مندفعة إلى المطبخ لتتهاوى على الارض بالقرب من آرثر صاحب المطعم كومة واحدة، وقد اتسعت عيناها ذهولاً. وهتف بها هذا وهو يمد يده يرفعها عن الأرض، ثم يقودها إلى الباب الخلفي حيث كان ثمة مقعد صغير بجانبه فأجلسها عليه، وقد بدا الاهتمام على ملامحه، هتف بها

قائلاً: «إيمي. ماذا حدث يا فتاة؟ ما الذي جرى لك؟» وكان يربت على يدها وهو يتكلم وقد بدت عليه الحيرة.

ولكنها لم تستطع ان تتكلم قبل مرور عدة ثوانٍ، قالت بعدها شبه هامسة: «هل بإمكاني العودة إلى البيت يا آرثر؟ اشعر انني بحالة مريعة.»

فأجاب: «هذا ما يبدو عليك.» وألقى نظرة من خلال زجاج الباب إلى غرفة الطعام المكتظة بالزبائن، ثم تابع يقول: «في الواقع، ليس بإمكاني ان اوصلك بنفسي، ولكنني سأستدعي لك سيارة أجرة.»

فقالت: «كلا، أرجوك أن لا تفعل.» ذلك أن أقرب محطة لسيارات الأجرة كانت في المدينة على بعد أميال، بينما كانت هي تريد الإنفراد بنفسها هذا الحين. وتابعت تقول: «سأعود سيرا على قدمي، فالمسافة لا تعدو العشر دقائق.»

فقال: «ولكنك لا تستطيعين المشي كما يبدو. دعيني...»

فهتفت وهي تواجهه قائلة: «ارجوك. انني افضل هذا.»

قال: «لا بأس، يا فتاة، افعلي ما تشائين. ولكن اتصلي بي هاتفياً حال وصولك، اسمعت؟ فقط لكي تسعدي الرجل العجوز.»

فقالت: «سأفعل ذلك. وسأحضر غداً كالعادة.»

بعد ذلك بوقت طويل في تلك الليلة، جلست إيمي في غرفتها المظلمة بعد عشاء لم تكد تذوق منه شيئاً، ومضت تفكر في الواقع الذي استجد فجأة بعد اجتماعها ببلايد. وكانت في عقلها اللاواعي، تأمل، دون اي سبب منطقي، في انها إذا رأته مرة أخرى، ولا بد من أن تراه حسب معرفتها بشخصيته، فإن شيء ما سيحصل وستصبح الأمور على ما

يرام. ولكنها كانت تعود فتفكر في سخافة تفكيرها هذا وعدم عقلانيته، ومع هذا بقي جزء ضئيل من عقلها متعلقاً بهذا الأمل دون وعي منها.

كانت كل معرفتها به لا تعدو التسعة أشهر، ثلاثة منها زوجة له. وكانت حياتهما الزوجية أشبه بالحلم الوردي. لقد اصابها الذعر في أول يوم من عملها كموظفة جديدة في شركة كبرى لتزويد المطاعم والفنادق والمنازل بالطعام، وذلك عندما طلب منها بمقابلة سكرتير رجل اعمال كبير للبحث في شأن إقامة عشاء رسمي في عطلة نهاية الأسبوع. وهكذا غامرت بالدخول إلى ذلك المكتب الفخم وتحذيرات بقية المستخدمين ونصائحهم تدوي في أذنيها (حذار، فهو صعب الإرضاء جداً. إنتبهي إلى تدوين كل التفاصيل على الورق بغاية الدقة. إنه لا يطيق أي خطأ، تحدثي مع سكرتيره عن كل شيء مرتين، لكي تتأكدي من عدم الخطأ لا تناقشي أي أمر يطلبه. ان كلمته قانون بذاته.) وهكذا كانت قائمة التحذيرات لا نهاية لها، ما جعل اعصابها غاية في التوتر وهي تطرق باب مكتب السكرتير، والذي كان أفخم من شقتها الصغيرة التي تسكن فيها.

كان المكتب خالياً، وما أن وقفت على السجادة السميكة وقد زاد سكون المكان في الرهبة التي تشعر بها، حتى انخلع قفل الحقيبة التي كانت تحملها والتي تحوي اوراق الشركة، ومن ثم تناثرت تلك الأوراق على الأرض. وأخذت تجمعها وهي تحبو على يديها وركبتيها، بسرعة بالغة وقد انتابها الانفعال، عندما تجمدت مكانها وهي تسمع صوت رجل عميق هادىء، آتياً من عند الباب، يقول: «الآنسة ميات؟

من شركة توزيع الأطعمة؟» فرفعت عيناها المذعورتين لترى رجلاً قد وقف مستنداً إلى الباب بتكاسل ومضى يتفحصها بكل دقة، بينما توقف ذهنها عن التفكير، ثم تابع يقول: «ان سكرتيري متوعك الصحة هذا النهار، واظن ان عليك ان تتحدثي بما جئت لأجله، معي شخصياً.»

فتبعته واهنة إلى مكتب بالغ الفخامة حيث وضعت حقيبة الأوراق على الأرض بسرعة تسبب عنها انفتاح القفل مرة أخرى، لتعود الأوراق فتتناثر على الأرض كما سبق وحدث في مكتب السكرتير.

فقال ببرود: «يا آنسة ميات، إنه ليس وقتك الآن...» ولكنه لم يكمل كلامه، بل استدار حول المكتب ليساعدها في لملمة الأوراق، وعيناه القاتمتان تلتمعان تسلية بما بدا عليها من ارتباك بالغ. وكانت عيناه منصبتين على جانب وجهها الذي كانت تعلوه غرة كثيفة من الشعر الذهبي. وقد اخبرها فيما بعد أنه وقع في حبها في هذه اللحظة بالذات مشبها شعوره ذاك بـ (ومضة البرق) حسب قوله. وكانت هي في الحادية والعشرين، وساذجة للغاية، بينما كان هو في الخامسة والثلاثين، وأبعد ما يكون عن تلك الصفة.

كان رجلاً ناجحاً بالغ الوسامة، ذا شخصية مرموقة في المجتمع. ولكنه عندما اخبرها أنه لم يقع في الغرام من قبل قط، صدقته. ولو لم يكن الأمر كذلك لأخبرها بالحقيقة لأنه كان من ذلك النوع من الرجال. لقد تبادلا الحب، والبهجة والضحك ولكن كل ذلك قد انتهى الآن. ذلك لأن بلايد فوربس كان رجلاً بالغ الحيوية. فقد امضيا شهر العسل بالنزهات والطيران بالطائرات الشراعية والليالي الطويلة الحافلة

بالحب، فهو لا يكاد يعرف الهدوء والسكون. وقد أحبت هي هذا فيه ككثير من صفاته الأخرى.

ولكن كيف سيكون بإمكان رجل كهذا، عنيف بالغ الحيوية، ذي ظمأ للحياة لا يروى، ان يحتمل زوجة ستكون ملازمة لكرسي ذي عجلات عندما تصل إلى سن الثلاثين؟ ولسرير في مستشفى بعد ذلك بخمس سنوات؟ حيث لن تقوى على الحراك أو التنفس من تلقاء نفسها؟

وعادت إلى ذاكرتها الحقائق الطبية التي وردت في ذلك التقرير الطبي بكل تجردها وقسوتها وكأنها تقرأها للمرة الأولى. لم يترك تقرير الطبيب ذاك الذي رأته، أي ثغرة. وفي الواقع، بدا ذلك العرض المجمل لتأثير المرض الذي كان كامناً في جسدها إلى حين نضجه كاملاً فيطل برأسه، وذلك في خلال بضع سنوات، بدا وحشياً للوهلة الأولى. ولكن هل ثمة طرق أخرى للكشف عن خبر كهذا؟

لقد حفر ذلك التقرير في ذاكرتها كلمة كلمة، وما عليها إلا ان تغمض عينيها لتقفز تلك الحروف الصغيرة امام عينيها بكل قوتها، فيخفق قلبها وهي تقرأها مرة أخرى في ذهنها، ليهزها نفس الشعور الذي انتابها لأول مرة وهي تعلم ما تعنيه من الموت الحي الذي ينتظرها.

لقد كان الحق معها إذ تركت بلايد. وصدرت عنها آهة ألم، ذلك أنه لم يكن أمامها خيار، ولكن... ونظرت حولها بعنف في تلك الغرفة المظلمة، ولكن ذلك لم يجعل الأمر، بالنسبة إليها، أخف وقعاً.

الفصل الثاني

«صباح الخير يا ايمي.» فتسمرت في مكانها، في منتصف الطريق إلى المطبخ، وقد شلّ الخوف كيانها وهي ترى بلايد يدخل المطعم مغلقاً الباب خلفه.

سألته وهي تتأمله بعينيها رغم الرجفة التي كانت تسري في جسدها، قائلة: «ماذا تريد؟»

فأجاب: «أريد أن اتناول طعام الغداء، ما دام مفروضاً أن يكون هذا المكان مطعماً للعموم.» فاحمر وجهها لسخريته هذه، بينما كان هو يجلس إلى احدى الموائد وقد بدا عليه الكسل والاسترخاء.

فتقدمت تقف بقربه تسأله بصوت منخفض: «لماذا جئت؟»

أجاب ببطء وصبر مبالغ فيه: «جئت لكي آكل. أتراك تتذكرين انني أقوم بكل ما يقوم به رجل طبيعي؟»

فعاد وجهها يتوهج لتهكمه العنيف هذا. وشكرت الحظ لأن جون غائب عن القرية لمدة أربع وعشرين ساعة، ولكن عليها ان تتدبر أمر الخلاص من بلايد قبل عودته.

وأجابته بصوت متوتر: «انك تعرف تماماً ماذا أعني. لقد قلنا أمس كل ما يمكن أن يقال.»

فقال بحدة: «اننا لم نفعل. وأرجوك أن تتخلي عن التظاهر بالغباء والسذاجة لأننا، نحن الاثنين، نعلم انك لست كذلك. فما زال أمامنا أمور لنتحدث فيها وتدابير نقوم

بها. أما تحركاتي فهي من شؤوني الخاصة، فتذكري هذا يا إيمي. لقد سبق وتخليت عن حقك في محاسبتي على أيّ شيء.»

فحملقت فيه غاضبة وهي تقول: «فهمت. هل تراك تشق طريقك بقوتك العضلية...؟»

فقاطعها ببرود: «لم تمض بعد أربع وعشرون ساعة على اتهامك لي في نفس هذا المكان بأنني أخوّف الآخرين. لو كنت مكانك أيتها الحبيبة، لتخليت عن توجيه الاهانات. فأنا لا أحبها وليس لديّ النيّة في أن اتحمل أكثر من ذلك. والآن هاتي قائمة الطعام وقومي بوظيفتك. المفروض أنهم يدفعون لك عليها أجراً.»

أخرستها غطرسته هذه، فتحوّلت عنه بعنف جعل شعرها المرفوع فوق رأسها بشكل ذيل الحصان، يتمايل بعنف هو الآخر. وسمعته يضحك بهدوء ما جعل دمها يجمد في عروقها. لم يكن في صدى ضحكته تلك أي مرح أو بهجة وانما قسوة بالغة وقف لها شعر رأسها. ومهما كانت خطته فليس بامكانه أن يخفيها طويلاً، أما هي فعليها أن تصبر في الوقت الحاضر. ولكن لماذا هو هنا؟ لقد سبق وقال انه يحتقرها وإنها لم تعد تثير فيه سوى الاشمئزاز والازدراء، فلماذا عاد إذن هذا الصباح...؟ هل لكي يعذبها؟

ونظرت إلى وجهه وهي تضع قائمة الطعام أمامه، فبادلتها عيناه السوداوان اللتان لا يسبر غورهما، النظرات. نعم، لا بد أن هذا هو غرضه. لم تكن تظن أنه من الممكن أن يكون بهذه القسوة التي لا لزوم لها، ولكنها في الحقيقة لم يسبق أن تمردت عليه من قبل، كما أنها ما كان لها أن تعجب

من تصرفاته هذه بعد كل الذي فعلته. إن بعض الرجال لا يكتفون بمجرد الشتائم اللفظية. ومن الواضح أنه نوى أن يسوّي الأمر مع جون بطريقته الخاصة.

تناول منها قائمة الطعام شاكراً. وبينما أخذ يقرأ فيها، كانت هي تقف بجانبه تتأمل رأسه المنحني.

وأرغمت عينيها على التحوّل نحو النافذة تنظر منها دون أن ترى شيئاً. يا ليتها لم تذهب إلى زيارة أختها ساندرا ذلك اليوم...

وقفزت مجفلة وصوته يخترق تأملاتها تلك، قائلاً: «أريد حساء وعجة بعد ذلك من فضلك.» وقطب جبينه وهو يرى اجفالها هذا، وقال: «أهي أحلام اليقظة، يا إيمي؟ إنني لن أسألك بمن تحلمين، انما هل لك أن تركزي انتباهك على عملك؟»

فأجابت بحدة وهي تدوّن طلبه في دفترها الصغير: «ليس من الضروري أن تكون كريهاً إلى هذا الحد.»

فقال وفي عينيه نظرة كالصوان: «أترين تصرفي هذا كريهاً؟ إنك لم تري بعد نصف ما ستلقينه مني، يا فتاة، ولكنك سترين. آه، نعم، سترين.»

وما أن اتجهت عائدة إلى المطبخ، حتى ساورها شعور مفاجيء جعلها ترتجف. هل الأمر يستحق كل هذا؟ أليس من الأفضل أن تخبره؟ أن تجعله يشاركها آلامها بدلاً من أن تتحملها وحدها؟ ولكنها ما لبثت أن تذكرت وجه ساندرا المغضن المرهق وجسدها، وهي ما زالت فتية وقد أصبح صورة مفجعة لجسد امرأة طاعنة في السن في تقوسه ونحوله. هل بامكانها هي عندما تصبح بهذا الشكل، ان

تحتمل رؤية عيني بلايد وقد امتلأتا، بدلاً من الحب والمشاعر الرومانسية كما تعودت عليهما، امتلأتا بالعطف والحزن؟ هل بامكانها أن تحتمل نظراته تلك إليها يومياً وهي تسير ببطء من سيء إلى اسوأ؟ هل... وأوقفت أفكارها عن الانحدار في هذا المجرى الهدام، واستقامت في وقفتها وقد انتابها غضب على نفسها لهذا التفجع، ثم اتجهت نحو الباب الذي كان جرسه يرن معلناً عن وصول زبائن جدد. لقد سبق وأدركت منذ أسابيع أن تفكيرها في المستقبل سيسلبها كل شجاعة لاحتماله.

وقدمت الحساء إلى بلايد قبل أن تستدير إلى أسرة احتلت مائدة في الناحية المقابلة من القاعة. وطيلة الوقت الذي أمضته في تسجيل ما طلبته أفراد الأسرة، وفي الثرثرة مع الأطفال، كانت تشعر بنظرات بلايد تخترق ظهرها. ولكنها حين استدارت في اتجاهه عائدة إلى المطبخ، كان محولاً نظراته نحو النافذة، وهو يأكل الخبز بهدوء.

وعندما جاءته بطعامه المؤلف من عجة اسبانية وبطاطا مقلية وسلطة، سألها بوجه خالٍ من التعبير: «متى تنتهين من العمل؟»

فسألته بفزع وهي تنظر في عينيه: «ماذا؟» ولكن نظرته الثاقبة سمّرتها في مكانها وهو يجيب بصوت هادىء: «لقد سمعت كلامي، يا ايمي. اننا نريد أن ننهي معاً بعض الأشياء المعلقة قبل أن تسير اجراءات الطلاق الرسمية بيسر. أليس هذا ما تريدينه؟ أن تتخلصي منيّ في أقرب فرصة؟»

فخفضت نظراتها بسرعة وقد بدت الكآبة على ملامحها. يا ليته يعلم... فهي لم تحبه قط من قبل كما تحبه الآن

وتتمناه وهي في قمة الخوف والشعور بالوحدة والوحشة مما يخبىء لها المستقبل.

قالت: «انني انتهي من العمل الساعة الحادية عشرة. ولكن بامكاني مقابلتك غداً صباحاً إن شئت.»

فقال بصوت قاطع لا يحتمل الجدل: «ساكون خارج المطعم الساعة الحادية عشرة.» فأومأت برأسها دون أن تنظر إليه، لتستدير بعد ذلك وتلوذ بعملها في المطبخ.

وأمضت بقية النهار تقوم بعملها بشكل آليّ فتسجل الطلبات، وتبتسم وتشترك في الحديث بينما عقلها في مكان آخر بعيد عن هذا المكان.

عندما تزوجت بلايد فوربس، لم يخطر ببالها لحظة أن هذا الزواج لن يستمر. فقد ذهب والداها قتلاً في حادث سيارة عندما كانت في الرابعة من عمرها، ومن ثم كان عليها وأختها ساندرا، أن تفترقا في منازل أقارب لهما تفصل بينهما مسافات بعيدة، فذهبت ساندرا إلى براري اسكوتلندا، أما هي فإلى قلب لندن. ولم تكن الشقيقتان متحابتين، فقد كانت ساندرا التي تكبر أختها بثمانية أعوام، شديدة الغيرة من أختها الطفلة الرائعة الجمال. ولكن ايمي مع ذلك تتذكر أنها بكت كثيراً عند فراق أختها كما سبق وبكت عند موت والديها.

وعندما أصبحت في السادسة عشرة من عمرها علمت أن ساندرا قد شاءت أن تقطع كل علاقة لها بها أثناء السنوات التي مرت. وفي آخر زيارة لها إليها في اسكوتلندا كانت صدمتها بالغة حين أغلقت أختها الباب في وجهها تطردها وبشكل معيب عادت أدراجها وقد أذهلتها الصدمة، مصممة

على أن تنبذ أختها من حياتها تماماً كما فعلت بها. هزت ايمي رأسها وهي تصل بأفكارها إلى هذا الحد. لأن الأمر لم يكن بهذه السهولة فقد كانت ساندرا أقرب الناس إليها ويسري في عروقهما دم واحد، فهي تريدها وبحاجة إلى حبها. وبسذاجة كانت ايمي تقدم «البيفتيك» وفطائر الكبة إلى سائحين يابانيين وضعا بينهما كاميرا، وهي تفكر كيف دفعت ثمن شعورها الأحمق ذاك بالقلق وعدم الطمأنينة، والذي دفعها إلى العودة لزيارة أختها وذلك بدلاً من أن تكتفي بزوجها بلايد فلا تطلب اكثر من ذلك. وبعد، فما تنتظر من اخت لم ترها طيلة حياتها.

لقد كانت عمتها العجوز وزوجها، واللذان احتضناها بعد موت والديها، هما اللذان أوجدا في نفسها، بشكل ما، ذلك القلق وعدم الطمأنينة. لقد أدركت هذا بعد حديث طويل كان قد دار مرة بينها وبين بلايد أفرغت فيه كل ما يملأ نفسها من شكوك ومخاوف. أدركت أن عمتها وزوجها كانا شديدي التزمت والتعصب للمبادىء الأخلاقية، فكانا لا ينفكان ينهيانها عن ذلك ويأمرانها بذاك، دون أن تدرك قط السبب في كل هذا، وأن جمالها الرائع كان يثير لديهما الحذر ويدفعهما إلى التزمت والمحافظة عليها وذلك يجعلها تعتقد أنها عنيدة وتستحق العقاب وأن جمالها هو شيء يدعو إلى الخجل، وعليها أن تحرص على عدم إظهاره، وذلك منذ اليوم الأول الذي عاشت فيه معهما. ومع أنها في أعماقها كانت تثور على هذا المنطق، إلا أن شيئاً منه قد تخلل نفسيتها ليسممها.

ولكن بلايد غيّر كل هذا. تنهدت بعمق وأخذ قلبها يخفق

بعنف. لقد فتح كل جروحها المتقيحة الكامنة في نفسيتها لينظفها ويخرج منها سمومها بالمنطق الصحيح والعقلاني. وكان هذا هو السبب في صفاء نفسها بالنسبة إلى ساندرا والذي جعلها تحاول رؤية أختها تلك مرة أخرى، ولكن ما رأته وسمعته قد أدخل الرعب في نفسها.

وألقت بنظراتها إلى الليل المظلم من النافذة. عليها أن تكف الآن عن كل هذا التحليل، ذلك لأنها بعد ساعة واحدة ستكون بحاجة إلى كل ذكائها للتفاهم مع بلايد. وعدة اكواب من القهوة السوداء لا شك ستساعدها على ذلك.

* * *

عندما خرجت من المطعم بعد ذلك بأكثر من ساعة، ظنت أن بلايد لم يأت. وشعرت بقلبها يخفق لذلك بعنف لم تدر معه هل سببه الارتياح أم خيبة الأمل. ولكنها ما لبثت أن سمعته يهتف باسمها وهو يظهر من بين الظلال في الجانب الآخر من الشارع.

وعندما أصبح بجانبها، سألته بصوت خافت: «أين سيارتك؟» فأجابها بصوت ساخر تشوبه القسوة: «إنها في أمان. فقد فكرت في أن نذهب إلى مسكنك سيراً على الأقدام.»

فسألته: «وهل تعلم أين أسكن؟»

أجاب وهو ينحدر بنظراته إليها: «طبعاً، فالمخبر الخاص الذي استخدمته لكي يعثر عليك كان ممتازاً في عمله.»

فقالت بفتور: «لا بد أنه كذلك.»

وعندما استدار باتجاه نزل السيدة كوكس الصغير، أجفلت مبتعدة عنه وشعرت بجسمه يتصلب بجانبها لنفورها هذا، فأخذت تشتم نفسها لحركتها هذه التي زادت في غضبه ودفعته إلى أن يقول لها: «إنني لست مرضاً معدياً. وأنا أحذرك الآن من أنني لن اكون مسؤولاً عن تصرفاتي فيما لو صدرت عنك حركة أخرى مثل هذه. مفهوم؟»

فقالت: «إنني لم أقصد...»

فقاطعها: «إنني أعرف ما الذي قصدته. وأنا مدرك تماماً أنني لست الشخص الذي كنت تتمنين أن تكوني معه الآن. ولكن بما أنني أنا الموجود هنا الآن وليس هو، فيحسن أن تضعي هذا بالحسبان.»

وسارا بقية الطريق صامتين. وما لبثت أن شعرت بما يشبه الاغماء نتيجة الخوف وعدم تناولها شيء من الطعام. فالغصة التي كانت تسدّ حلقها طوال النهار، منعتها من أن ترغم نفسها على تناول شيء، كما أنها لم تكن قد تناولت عشاءها الليلة الماضية، بينما هو قد تناول غداءه بكل شهية واستمتاع. وفي هذه الأثناء، استدارا ليدخلا شارعاً معتماً ينتهي بصف من الأكواخ كان من بينها النزل الذي تسكن فيه.

«والآن...» نطق بهذه الكلمة فجأة، وقبل أن تدرك ماذا يقصد، كان قد أدارها إليه ممسكاً بكفيها بحركة هي أبلغ من أي كلام.

وقال بصوت يتجلى فيه الاحتقار والازدراء، هذا إلى شيء آخر لم تستطع تمييزه، شيء قد يكون ألماً، قال: «لا يمكنني تصديق هذا. أن تستسلمي إليّ بهذا الشكل بعد كل ما فعلته. من أنت يا إيمي، وما هو كنهك؟»

وكانت عيناه تتألقان في ضوء القمر الذي كان يتخلل أغصان شجرة السنديان الضخمة التي كانت تقوم إلى جانب الطريق، وتابع يقول: «لقد توقعت منك أن تقاوميني، أن تعترضي... أي شيء!» وكان يكلمها وقد استبد به الغضب والمرارة. كان غاضباً إلى درجة لم تره هكذا من قبل، وهو يتابع قائلاً: «كنت أظن أنني عرفت في حياتي الكثيرات من النساء، من كل نوع، ولكنني لم أر مثلك قط.»

وكان ما يزال يتكلم عندما سقطت على الارض مغمى عليها، وقد انتشر شعرها تحتها كهالة ذهبية بينما بدا وجهها شاحباً كالأموات.

وابتدأت تعود إلى وعيها ببطء، شاعرة برأسها يموج بألوف الصور المخيفة، لتجده جالساً بجانبها على العشب.

وهمست: «بلايد...» ولم تستطع النطق جيداً، فقد كانت تريد أن تقول شيئاً لكن لسانها لم يكن ليطاوعها.

فقال آمراً: «لا تتحركي. لقد أغمي عليك فلا تتحركي.»

فقالت وهي تشعر بشفتيها جافتين: «أغمي علي؟ لم يحدث لي ذلك من قبل.»

فقال: «كلا؟» بدا وكأنه يريد أن يقول شيئاً، ولكنه بقي صامتاً وهو يتفرس في وجهها بعينين يتجلى الشك فيهما، ليقول أخيراً: «هل لديك ما تخبرينني به، يا ايمي؟»

فأجابت وهي تحاول أن تبتعد عنه: «ما أخبرك به؟ لا أفهم ما تعني.»

فأفلتت من بين شفتيه شتيمة، وقد بدا عليه العنف البالغ، ووقفا معاً ليتابعا سيرهما. قال لها عابساً: «أعني أنه ليس غريباً بالنسبة إلى المرأة، في حالات معينة، أن يغمى عليها

بعد حوالي ثلاثة أشهر من الزواج. هل أستمرّ في الشرح؟»

فهتفت قائلة: «ماذا؟ هل تظن أنني حامل؟»

فقاطعها قائلاً: «إنها لن تكون المرة الأولى التي يحدث فيها لامرأة تركت زوجها من اجل رجل آخر.» وكان يقول هذا وقد بدا الجمود في صوته وعلى ملامحه إلى حد رهيب.

غمرتها التعاسة وشعرت بالدوار يلف رأسها.

فأجابت وهي تفكر متألمة، في أنه أصبح يشمئز منها ويكرهها: «إنني لست حاملاً، يا بلايد. كما أن هذا لا يمكن أن يحدث.» أما كيف أمكنها أن تتكلم بمثل هذا الهدوء، فهذا ما لم تكن تعرفه.

فقال: «فهمت.» وألقى عليها نظرة شاملة وهو يضع يديه في جيبي سترته.»

فقالت وهي تتابع سيرها: «إنني لا أريد مناقشة هذا الأمر.» ولكنه أسرع خلفها يسدّ عليها الطريق وفي عينيه نظرة مخيفة وهو يقول: «أحقاً لا تريدين ذلك؟ إن وقاحتك هذه تذهلني. ماذا حدث لتلك الفتاة البريئة السعيدة التي تزوجتها يا ايمي؟»

ودون تفكير، أجابت على الفور: «لقد ماتت.» وكان لخروج هذه الكلمات من قلبها مباشرة، هذا إلى شيء في لهجتها غير عادي، كان لذلك ما جعله يحدّق في وجهها بإمعان وبطء، وقد بان التفكير على ملامحه، وذلك قبل أن يشير بمتابعة السير، وهو يقول بلهجة هي مزيج من السخرية والمرارة: «لماذا يبدو لي أن فترة حبك الحقيقي هذه لا تسير معك بالسهولة التي كنت تتوقعينها؟ ما هي

المشكلة يا ايمي؟ أترى حبيبك يفضل أن يأتيك بين الحين والحين، بدلاً من أن تنصبي خيمتك على عتبة منزله؟»

فحملقت فيه دون أن تتكلم، حيث أنهما كانا قد اقتربا من نزل السيدة كوكس.

ولكنه تابع يقول: «أو أن عودتك إلى العمل لإعالة نفسك في مثل هذا العالم الواسع الرديء، لم تجديها حلوة؟» وكان يرمقها وهو يتحدث، بنظرات غامضة ثابتة.

فأجابت بلهجة متوترة: «ألا يمكنك أن تدع هذه الأمور جانباً وتتقبل...»

فقاطعها قائلاً: «أظنك تعنين نفسك بكلمة الأمور هذه.» وابتسم ببرود وهو يتابع قائلاً: «إنك تحبين هذا، أليس كذلك؟ أعني أن تتمكني من طيّ هذا الفصل من حياتك وكأنه لم يكن سوى فصل تدريبي؟ ولكنه ليس كذلك، ولا نحن. فأنت مازلت زوجتي... زوجتي يا ايمي.» وكانت لهجته والتأكيد الذي ظهر في كلماته، كان ذلك كما سمعته يتحدث في الحلم، بالضبط. فنظرت إليه بعينين يملؤها الخوف وقد شعرت بقشعريرة تسري في جسدها.

فسألها قائلاً: «هل أخيفك؟» وكانا الآن قد وصلا إلى المنزل، فمال نحو بوابة الحديقة يفتحها لها وهو يتابع قائلاً وقد بانت القسوة في وجهه: «إن من الحكمة أن تخافي مني، يا ايمي. فالناس تخاف مني لأشياء أقل كثيراً مما فعلته أنت.»

فرفعت وجهها تتصنع الشجاعة وهي تقول كاذبة: «إنك لا تخيفني، وأنا لا أحب التهديد.»

فقال ببطء وعيناه في عينيها: «إذن، فافهمي هذا على

أنه تحذير تبلغينه لمن يهمه الأمر. إنني أعلم أن جون سيعود إلى منزله غداً.» وكان صوته، وهو ينطق بالجملة الأخيرة، من البرودة بحيث جمد الدم في عروقها.

إنه ما يزال يظن أن المسكين جون له علاقة بالأمر. وهكذا إذا تمكنت من أن تصبر على مرور الأيام القليلة القادمة دون أن تفضح نفسها، فسرعان ما يتركها ويرحل. ذلك أنه لا يستطيع أن يبقى مدة طويلة بعيداً عن قيادة أعماله الواسعة، عدا عن أن هذا المكان لا بد سيصيبه بالجنون. ولو لم يكن قلبها يقطر دماً لابتسمت مهنئة نفسها. ذلك أن المروج الخضراء الفسيحة، والوديان العميقة المغطاة بالغابات والتلال المنتشرة بجداولها المنسابة، وشلالاتها البلورية، هذه الطبيعة الرائعة التي تغمر نفسها بالطمأنينة والسلام ما هي إلا لغز غامض بالنسبة إلى الرجل الذي تزوجت. ذلك أن مكانه الذي أتى منه انما هو دنيا الأعمال المضطربة القلقة وتعامله هو مع أناس تملؤهم الشكوك والسخرية. كان هذا هو طراز الحياة الوحيدة الذي يعرف.

«هناك شيء آخر، يا إيمي.» فأجفلت وهي تراه بجانبها يحدثها وقد التهبت عيناه، متابعاً: «سأبقى هنا مهما تطلب الأمر من وقت.» فحملقت فيه. أتراه كان يقرأ أفكارها؟ بينما ابتسم هو ساخراً وهو يتابع قوله: «انني لست مستعجلاً للعودة إلى لندن، كما أن هذه منطقة جميلة جداً. والآن ادخلي لترتاحي إذ يبدو وكأنه سيغمى عليك مرة أخرى.» لقد كان يسخر منها طبعاً. ولكنها لم تقل شيئاً بينما كانت عيناه السوداوان تتفرسان في وجهها وهو يتابع كلامه قائلاً: «لقد كانت الثلاثة أشهر الماضية مزعجة

قليلاً... ما يجعلني بحاجة الآن إلى اجازة قصيرة للاسترخاء. ما رأيك؟»

فأجابت بغضب: «رأيي هو أنك تكذب لأنني طوال معرفتي بك، لم تهتم بأن تأخذ اجازة قصيرة للاسترخاء من أي نوع كانت، ذلك ان اجازة كهذه ستقتلك...»

فقاطعها قائلاً: «آه، هذه هي العقدة في هذه المسألة، يا حلوتي.» ولم يكن الآن في صوته أي سخرية وهو يتابع قائلاً: «ذلك انك لم تعرفيني على حقيقتي أبداً، أليس كذلك؟ لقد بدأت علاقتنا بزوبعة من الغزل والعبث، لتنتهي بك بعد أشهر قلائل، عروساً تحمر خجلاً. فليس لديك فكرة حقيقية عما يخرجني عن طوري، ولو كان لديك، لما ساورتك قط فكرة طائشة جعلتك تتركينني لأجل رجل آخر.» ولم يكن التهديد في كلامه هذا ليخفى عليها، بينما كان يتابع قائلاً: «إنما إياك أن تظني أنني هنا لأن هذا الأمر يهمني بأي شكل كان. لقد سبق وأخبرتك من قبل أنني غير مهتم. ولكنك ملك لي، ولا أسمح لأحد قط بالإستيلاء على ما أملكه.»

ولأول مرة، منذ عودة ظهوره في حياتها، اشتعلت نفسها غضباً، لتقول بعنف بالغ: «ملك لك؟ كيف تجرؤ على هذا القول؟»

وما أن رفعت يدها لتصفعه، حتى أمسك يدها تلك بقبضته الحديدية، دافعاً البوابة بقدمه وداخلاً معها إلى الحديقة، وذلك قبل أن تسترد أنفاسها، وهو يقول معنفاً بلهجة ساخرة: «ألا تعجبك المصطلحات التي استعملها؟ بماذا تصفين نفسك إذن؟»

فأجابت بحرارة وهي تكافح للتخلص من قبضته: «إنني

زوجتك ولست ملكك. فكيف تجرؤ على ذلك القول، كيف...؟»

فقال: «آه، إذن فقد تذكرت أخيراً انك زوجتي.» أخذت تتخبط تحاول التملص وتميل برأسها من ناحية لأخرى. وسمعته يشتم إذ رفسته بقدمها تحت ركبته، وما لبث أن دفعها نحو شجرة ليلك كان أريج أزهارها يعبق في الجو، وهو يقول: «إنك بحاجة إلى درس، يا فتاتي.»

ولكنها عادت إلى المقاومة رغم علمها سلفاً أنها معركة خاسرة. والحقيقة أنها لم تكن تقاومه هو، وإنما كانت تقاوم نفسها هي التي كانت تضعف أمامه شيئاً فشيئاً. ذلك أنها كانت تعلم جيداً أنه كان يريد أن يحطم مقاومتها باستمالة أحاسيسها وليس بالقوة. ولكن، ما هي النهاية؟ وتملكها اليأس لفكرة أنه لم يعد يريدها. فقد سبق وقال بكل وضوح إنها أصبحت في نظره الآن من سقط المتاع. كلا، بل إن هذا لا يعدو كونه أسوأ أنواع الانتقام وأقساه.

وكان هو يهمهم قائلاً: «كان عليّ أن أقتلك لما فعلته...»

ولم تستطع أن توقف الرجفة التي شملت كيانها. كانت تعلم أن عليها أن تستمرّ في مقاومته.

«ايمي؟» وكان هذا صوت السيدة كوكس يخترق السكون الذي يلفهما، وكانت تتابع قائلة: «أهو أنت هناك، يا ايمي؟ لقد سمعت حركة...» وكانا هما خلف نباتات نامية متسلقة تخفيهما عن الأنظار.

قال بلايد بصوت رقيق مرح ممزوج برنة ارتباك تناسب موقفهما أمام تلك المرأة المحافظة: «إنها ايمي، يا سيدة كوكس...» وخرج من بين الظلال ليظهر في النور المنبعث من الباب المفتوح وهو يقول: «لقد رافقت ايمي إلى هنا من

المطعم، يا سيدة كوكس. وكنا نتبادل تحية المساء فقط.»

فقالت المرأة بلهجة بان فيها الشك: «أصحيح كلامك هذا؟ أين هي إذن؟»

فأجابت ايمي وهي تخرج من بين الظلال بدورها: «ها أنذا، يا سيدة كوكس.»

فنظرت المرأة القصيرة البدينة إلى قامة بلايد الشامخة، فمثلت دجاجة متأهبة للدفاع عن فراخها إزاء دخيل يهددها، ثم سألتها قائلة: «أتعرفينه؟»

فأجابت ايمي وقد توهج وجهها: «إنه صديق قديم وصل لتوه من لندن، يا سيدة كوكس.»

فانبعث صوت بلايد رقيقاً دافئاً، وهو يقول: «هذا ليس صحيحاً تماماً، يا سيدة كوكس.» وكان التعبير الذي رسمه على ملامحه وهو يقول هذا، من الصدق والبراءة والصراحة ما جعل ايمي تتمنى لو تضربه. وتابع قائلاً: «إنني في الواقع، زوج ايمي رغم أني منبوذ. لقد انفصلنا منذ ثلاثة أشهر.» ولفظ الجملة الأخيرة بلهجة أسف لا تدع مجالاً للشك في من منهما ترك الآخر.

فقالت السيدة كوكس بلهجة متصلبة: «فهمت. ولكن هذا ليس من شأني.» واستطاعت ايمي أن ترى نظرة الدفء التي تألقت في عيني المرأة وهي تنظر بعطف إلى بلايد. وفكرت ايمي بمزيج من الحيرة والاستياء، في أن بلايد استطاع أن يكسب المرأة إلى صفه بجملتين اثنتين فقط، بالإضافة إلى مقدار كبير من ظرفه المعتاد. هل من الممكن أن تتأثر السيدة كوكس بما تظاهر به من سذاجة وبساطة؟

يبدو ذلك، إذ سمعتها تخاطبه بهدوء قائلة: «تفضل

وتناول كوب شاي معنا. لقد صنعت لتوي ابريقاً منه.»

فأجاب: «هذا لطف بالغ منك.» وعندما وصل إلى عتبة الباب، تنحى جانباً لإيمي لكي تتقدمه في الدخول. وعندما نظرت إلى وجهه، رأت ملامحه بصلابة الحديد.

وغمرت ايمي التعاسة وهي تتساءل عن السبب في تصرفه هذا. فهو لم يشرب الشاي طوال حياته إذ كان دوماً يفضل القهوة الثقيلة السوداء. وكانت هي تعرف جيداً أنه لا يمكن أن يفعل شيئاً برغمه. ولكن، بطبيعة الحال... وعندما جلست بجانب النيران المشتعلة في غرفة الجلوس الصغيرة، تستمع إلى بلايد يشد انتباه السيدة كوكس بحديثه، أدركت للتو هدفه من كل هذا. ذلك أن هذا المكان يمثل ملجأها ومأواها وهو يريد أن يفسده عليها. ألم يتحدث عن رغبته في معاقبتها؟ إنه يريد أن يجعل السيدة كوكس وكل من يعرفها من سكان القرية يعلم بأنها هربت من زوجها مع رجل آخر بعد أشهر قليلة فقط من زواجهما. وهنا المجتمع صغير والأهالي متمسكون بالقيم الأخلاقية ونفس القوانين والأعراف الاجتماعية التي كانت متبعة في بداية هذا القرن. إنها ستظل تعامل بنفس التهذيب الذي تعودته والذي كان عادة في هذه القرية. ولكن بلايد سيكون قد دمغها بصفة ذلك النوع من النسوة وسيعتبرونها في المطعم على قدم المساواة مع سلفتها التي كانت هربت من زوجها وأولادها مع حبيب لها. وبعد أيام قليلة، سيرحل هو بعد أن يكون قد أكمل مهمته.

لقد أدركت الآن، وهي تجلس في هذه الغرفة شبه المظلمة والتي يتألق فيها ضوء اللهب المتصاعد، من

المدفأة، أن الأمور هنا لن تستقيم معها كما كانت تتصور. وأفزعتها هذه الفكرة، ذلك أنه يجب أن لا يعلم الحقيقة. يجب أن لا يعلم، وعليها أن تفعل أي شيء، أي شيء لكي تمنع ذلك.

وأخذت تحدق في ذراعه التي كان يمدها على مسند الكرسي، وفي ساعة من الذهب الخالص كانت تحيط بمعصمه الأسمر، وفي خاتم الزواج ذي الماسة الكبيرة الذي كانت قد وضعته في اصبعه بنفسها يوم عرسهما. يا لمظاهر الثراء الاسطورية هذه التي أحاطت بها منذ أول لقاء بينهما.

ولكن كل ما في الأرض من ثراء لن يكون في إمكانه شفاءها من الوضع الذي ستصل اليه رغم كل ما يملكه بلايد من الأموال المكدسة.

كانت هذه أحد الأشياء التي أخذت ساندرا تزمجر بذكرها في ذلك اليوم، وخفق قلبها ألماً وهي تتصور وجه أختها الملتوي الغاضب، وهي تقول: «ها أنت ذي تظنين أنك ملكت كل شيء، أليس كذلك؟ الزوج الوسيم والثراء الطائل.» وكان صوت ساندرا يتهدج مرارة وعنفاً وهي تتابع قائلة: «ولكن لم يعد لديك الآن شيء من ذلك، يا أختي الصغيرة. لا شيء مطلقاً، وستصبحين في النهاية مثلي. إن جمالك لن يعود شيئاً يذكر حالما يعتريكِ المرض. أنظري إلي، أنظري جيداً. إنني الآن أنت كما ستكونين عليه بعد سنوات قليلة. ولن يكون في إمكان زوجك أن يفعل شيئاً، إذا كان هذا ما تفكرين فيه، ان كل اموال العالم لن تستطيع شيئاً. انني اعلم كل شيء. لقد سبق وسألت عن ذلك.» ونظرت

إليها بوجهها المعذب، ثم تابعت قائلة: «لقد ظن أنه حصل على دمية رائعة الجمال يتباهى بها امام اصدقائه، ولكن، بدلاً من ذلك سيجدك قد اصبحت كحجر الرحى حول عنقه. كم سيكون هذا مضحكاً. هل بإمكانك أن تري الناحية الساخرة من هذا الأمر يا إيمي؟ هل بإمكانك ذلك؟» فأجابت إيمي وهي تحدق في تلك العينين اللتين يطل الخبل منهما، أجابت هامسة وهي تشعر بما يشبه الاغماء: «إنك لست مريضة في جسدك فقط، يا ساندرا.» ذلك أن يدي ساندرا كانتا قابضتين بتوتر على ذراعي الكرسي ذي العجلات وكأنها شبح يهم بالقفز عليها، لو لم تكن ايمي متأكدة من أن أختها لا تستطيع الحراك.

وصرخت ساندرا فيها بمرارة: «ماذا تعرفين عني؟ لقد كنت دوماً المفضلة عند والدينا، كنت الجميلة، الخالية من أي عيب. لقد كنت في حياتك محظوظة حتى الآن، وكل شيء كان يسير كما تشتهين وليس مثلي أنا.»

فقالت إيمي: «كلا، لم تكن حياتي كما تظنين.» وكانت تقف على عتبة غرفة ساندرا في بيتها القديم القائم في قلب مدينة غلاسكو، وقد أمسكت بيدها التقرير الطبي الذي كانت ساندرا قد أعطتها إياه منذ دقائق. وكانت أختها تراقبها بسرور خبيث وهي تحاول أن تستوعب ما هو مدوّن في تقرير الطبيب هذا، وتتابع قائلة: «لقد كانت طفولتي التي أمضيتها مع عمتي أليس وزوجها جوليان تعيسة للغاية. ولم أدرك معنى السعادة الحقيقية إلا عندما قابلت بلايد.»

فقالت ساندرا وقد ظهر في عينيها حقد وخبث غير عاديين: «حسناً، سامحيني إذا أنا لم أذرف الدموع لأجلك.

إنني أكرهك يا إيمي. لقد كنت أكرهك دوماً وسأموت وأنا أكرهك.»

لقد تركتها عند ذاك وقد أذهلتها الصدمة وهي ما زالت تحمل ذلك التقرير في يديها المرتجفتين. وقد وصلت إلى لندن بصعوبة بالنسبة إلى حالتها التي كانت عليها، إلى حد لم تعد تتذكر تلك الرحلة مطلقاً.

لقد تعثرت، تلك الأثناء في سيرها وهي تدخل حديقة المدينة الرائعة الجمال، بينما كان جسدها المتوتر يرتجف وقد ساد الشحوب وجهها حيث جلست عدة ساعات في محاولة لاستيعاب وضعها الجديد على ضوء ما قرأته. إنها ستموت بعد سنوات قليلة.

وهزت رأسها ببطء، ببطء شديد. هكذا أكدت لها ساندرا. ويوماً بعد يوم، اسبوعاً بعد أسبوع، شهراً بعد شهر، ستضمحل قواها، وتنكمش عضلاتها وبالتالي يتوقف جسدها عن الحياة. إنها ستموت. لقد مزقت التقرير ذاك إرباً، لتجد بعد ذلك أن كلماته حفرت على صفحات ذهنها.

وفجأة، اخترق صوت بلايد مجرى أفكارها وهو يجيب على شيء كانت السيدة كوكس قد قالته. فأجفلت وهي تعود إلى الواقع لتشعر بالحيرة إذ تجد نفسها في غرفة الجلوس الصغيرة هذه، ذات الأثاث الثقيل القديم، والنار المشتعلة.

نعم، لا بد لها من أن تفعل أي شيء لكي تخفي عنه الأمر ولو اقتضى ذلك رحيله من هنا كارهاً حتى اسمها.

الفصل الثالث

لقد كانت شبه متوقعة من بلايد أن يكرر عمل اليوم السابق الفاشل، ولكن عندما لم يظهر في موعد الغداء التالي، استحالت إلى كتلة من الاعصاب التوترة. فكانت لدى أي رنين لجرس الباب، أو أي صوت رجل تسمعه، تقفز إلى الباب، أو تدور في أنحاء المطعم. وما أن حان موعد خروجها عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، حتى شعرت وكأن مطرقة حديدية تضرب رأسها.

عندما خرجت بعد الحادية عشرة، لتسير في شارع القرية الهادىء، وقفت لحظة شاعرة بانتعاش بالغ وهي تستنشق الهواء البارد النقي بعمق وقد اغمضت عينيها، وعندما فتحتهما، فوجئت ببروز جسم قاتم ضخم من بين الظلال متقدماً نحوها، وذلك في الوقت الذي تعالى فيه صوت جون يهتف باسمها من سيارته الصغيرة التي كانت تقف على بعد أمتار قليلة: «إيمي، ها أنذا هنا.» لقد شعرت، لأول وهلة، كمن فوجىء وهو يقوم بعمل شائن. وتجمد بلايد في منتصف طريقه نحوها وعيناه تتنقلان بين وجهها المذعور وبين السيارة التي كانت الظلال تخفيها جزئياً، ليندفع بسرعة البرق نحو السيارة، قبل ان تتمالك هي نفسها وتتحرك من مكانها، ويقول مخاطباً السائق بصوت كصلابة الفولاذ: «اظنك جون ديفس. دعني أقدم إليك نفسي. انني بلايد فوربس زوج إيمي.» ومد يده يفتح باب السائق بعنف، لم تكن

إيمي لتدهش لو أن ذلك الباب اقتلع في يده. بينما كان هو يتابع قائلاً: «اظن أن هناك مسألة صغيرة علينا أن نناقشها، يا سيد ديفس، إذا كنت تحب أن تخرج من السيارة.»

فهتفت إيمي، وكانت الآن قد أصبحت بجانبه وعيناها المذعورتان على وجه جون المجفل وهو يرفعه محدقاً في بلايد الذي كانت ملامحه مكسوة بالإنفعال والكراهية، هتفت تقول: «دعه يا بلايد.»

فأجاب ببطء: «أدعه؟ فيما بعد، يا زوجتي الصغيرة الحلوة غير المخلصة. فيما بعد. أما الآن يا سيد ديفس.» واستدار ليعود فيحدق في جون مباشرة وهو يقول: «هل ستخرج من هذه السيارة بإرادتك، أم عليّ أن اسحبك منها؟»

فتمتم جون بجفاء وهو يحدق في قامة بلايد البالغة ستة اقدام طولاً: «لا بد لي من أن اقول انني لا أرغب في أيّ من الأمرين، ولكن إذا كنت مصراً، فإن عليك أولاً أن تناولني ذينك العكازين من المقعد الخلفي.»

فهتف بلايد قائلاً: «ماذا؟» ولأول مرة ترى إيمي بلايد يقف لحظة حائراً وهو ينقل نظره من وجه جون المستدير الشاحب إلى عكازين من الفولاذ ملقاتين في مقعد السيارة الخلفي.

فعاد جون يقول بصبر: «العكازين، انني مضطر لاستعمالهما إثر حادث اصطدام مقدم طائرة كنت استقلها، بالجبل في اسبانيا وذلك منذ شهور. فإذا لم يكن لديك مانع...»

فمال بلايد برأسه نحو إيمي وهو يقول ثائراً: «انني لا اصدق هذا. هل ما يقوله صحيح؟»

فأجابت بهدوء وهي تخفي ألمها: «الأمر كما يقول. لقد كان جون يعيش في اسبانيا، فهو كاتب. وحدث أن قام برحلة صيد

في الجبال، مع بعض اصدقائه حين تعرضوا الحادث...»

فقاطعها بعنف: «انني لا أريد قصة حياته، وإنما هل يستطيع المشي؟»

فقال جون بصوت تشوبه الفظاظة: «نعم. بإمكاني ان أمشي.» وكانت فظاظته هذه غير عادية بالنسبة إلى إيمي، فخافت أن يختار هذه اللحظة لكي يتصرف دون تعقل. فهو، عادة، لطيف طيب المعشر...

فقال بلايد: «إذن، فأنا مازلت أريدك أن تخرج من السيارة.» واستدار يفتح باب السيارة الخلفي ويخرج العكازين يناولهما لجون. وهبط قلب إيمي. ماذا يريد ان يفعل؟ هل من الممكن أن يهاجم جون الآن وهو يعلم أن جون مصاب؟ ونظرت حولها بذعر، ولكن الشارع المظلم كان منعزلاً تماماً.

واقتضت محاولة جون الخروج من السيارة عدة ثوان لاحظت هي اثناءها، ضيقه بذلك. وكان وجهه الشاحب قد توهج الآن وهو يحدق في وجه بلايد الغاضب ويقول: «لِمَ كل هذا؟»

فأجاب بلايد: «لماذا كل...» وتلاشى صوته وهو يحدّق في ذلك الرجل الذي يصغره حجماً وهو يقف مستنداً إلى العكازين، ثم يعود فيقول: «آه، يا للدم الإنكليزي. ماذا تظن السبب في كل هذا؟ انها فقط قضية زوجية صغيرة أم أنها غابت عن ذهنك؟ أم تراك ستنكر ذلك؟» وكان يصرف باسنانه لشدة الانفعال وهو يتكلم.

فازداد وجه جون المستدير توهجاً وهو يجيبه قائلاً: «انكر ذلك؟ هل افهم من ذلك انك تتهمني بزوجتك؟»

فأجاب بلايد بشراسة: «ها انت ذا قد فهمت اخيراً. صدقني لو لم تكن غير قادر على الدفاع عن نفسك...»

فقاطعه جون بصوت متوتر: «لقد أدركت الآن السبب في اضطرار إيمي إلى تركك. ولكن ما يحيرني انتظارها ثلاثة اشهر كاملة قبل ان تعلم أنها ارتكبت مثل هذه الغلطة. كيف تجرؤ؟»

فقاطعه بلايد قائلاً: «كيف تجرؤ؟» ومن الغريب ان بلايد كان يزداد هدوءاً وتمالكاً للنفس كلما ازداد جون غضباً، إذ يتابع وقد ارتسمت السخرية على ملامحه: «اظن ان هذا ما ينبغي عليَ أنا أن اقوله في هذا الظرف، أليس كذلك؟ منذ متى تعرف زوجتي؟» وشدد الضغط على لفظ الكلمتين الأخيرتين مع الاحتقار البالغ.

فأجاب جون بضيق: «منذ سنوات.»

فقال بلايد بمزيد من الجمود: «هل من الممكن أن تذكر ذلك بدقة اكثر؟»

فأجاب جون: «بعد تعارفنا في الجامعة أثناء امتحانات إيمي النهائية. فقد كان لبعض زملائها وزميلاتها في الجامعة سكن قريب من شقتي فكنا نتعشى جميعنا معاً في الليالي. وقد انتقلت إيمي، بعد ذلك، للإقامة معهم بعد أن أصبحت حياتها في منزلها صعبة للغاية. وهكذا وجدنا أنا وهي، أن ثمة ميولاً كثيرة تجمعنا معاً.»

ونطق بالجملة الأخيرة من باب الاغاظة، على غير عادته. فنظرت إليه إيمي بذعر ثم اغمضت عينيها جزءاً من الثانية وهي تتساءل عما تراه حدث له، وعما إذا كان يتمنى الموت أو ما أشبه...

فقال بلايد ونظراته تنتقل، كحد السيف، إلى إيمي لتعود إلى جون: «ما ألطف هذا. وهل لي أن افترض أن علاقتكما قد انتهت إلى نتيجتها الطبيعية؟»

فأجاب جون متوتراً: «ان هذا يتوقف على ما تعنيه بكلمة طبيعية، انني...»

فقاطعته إيمي بلهفة: «لقد كان جون في ذلك الوقت، مرتبط بفتاة. فتاة طيبة جداً. وكانت صديقتي...»

فأسكت بلايد ثرثرتها بنظرة نارية، ليعود بعدها إلى جون قائلاً: «هل أفهم من كلامك أن علاقتك بصديقتك تلك دامت مدة طويلة؟»

فأجاب جون بغضب وهو ينصب قامته، وقد بدت في عينيه نظرة عدائية: «لقد عشت في اسبانيا الثلاث سنوات الأخيرة. أما حياتي الخاصة فلا شأن لك بها. أما إيمي فهي من اصدقائي الأعزاء، وقد شعرت بأنها شرفتني عندما فكرت بالمجيء إلي عقب تركها لك.»

فقال بلايد: «اشعرت بذلك حقاً؟» وخيل إلى إيمي ان بلايد سيثب على جون رغم عكازتيه.

وتساءلت عما يدفع جون إلى مثل هذا الكلام، ولماذا لا يخبره أنه اخذ يقنعها بالعودة إلى زوجها وأنه لم يوافق على اختفائها بهذا الشكل خصوصاً عندما لم تعطه سبباً مقنعاً لتركها بلايد، وأن يخبره...

وكان جون يتابع: «نعم، لقد شعرت بذلك. ويمكنني ان افهم الآن بشكل افضل السبب في أن الحزن والهلع كانا مستوليين عليها حين جاءت إلي، بأي شكل كنت تعاملها؟»

وعلمت إيمي في الوقت المناسب تماماً، ما ستكون عليه ردة فعل بلايد إزاء كلام جون هذا، إذ سارعت إلى إلقاء نفسها امام جون في نفس اللحظة التي كان فيها بلايد يندفع نحوه وقد بدا الإجرام في عيَنيه، وهي تفكر مذعورة في أنه كان ينبغي عليها ان تخبر جون سبب تركها بلايد. ولكنها لم تكن تريد شفقته وعطفه مما يزيد شعورها

بالضعف في الوقت الذي كانت بحاجة إلى الشعور فيه بالقوة. وهكذا، لم تقل له سوى ان زواجهما غير ناجح، فلم يشأ هو ان يدقق في الأمر، ولكن هذه كانت غلطة سيئة كما أدركت الآن وهي تسمع جون يتكلم من خلفها يخاطبها: «بإمكاني الاهتمام بأمري، يا إيمي، فابتعدي عن الطريق.»

«بلايد... ارجوك. ارجوك...» ولم تدرك بالضبط ما الذي كانت تضرع إليه لأجله، ولكن الخوف في عينيها كان يتحدث بوضوح إلى ذلك الرجل العنيف الماثل امامها.

وبقيت نظرات بلايد متعلقة بنظراتها لحظة طويلة متوترة، قبل ان يلين ذلك الجسد المتصلب ما جعلها تشعر بارتياح بالغ، وهو يقول: «إذهبا معاً إلى الحضيض، إذا كان هو من تريدين.» واستدار بحدة متجهاً نحو الطريق متوقفاً برهة قصيرة حين ناداه جون من خلفه قائلاً بغضب: «ليس الأمر كما تظن، يا رجل.» ذلك ان جون كان قد لاحظ، وليس إيمي فقط، ذلك العذاب الذي بدا في عيني بلايد وهو يستدير مبتعداً. وكان الألم الذي شعرت به إيمي لذلك قد حبس منها الأنفاس. ما الذي فعلته؟

وكان جون قد بقي واقفاً بقربها صامتاً لا يتحرك، فترة طويلة في تلك الليلة الظلماء، ليستدير بعد ذلك نحوها، وقد بدا الإضطراب على وجهه المستدير اللطيف، وهو يقول: «إنني لا افهم شيئاً من كل هذا، يا إيمي. ما الذي جعلك تتركينه؟ ولماذا لم يكن زواجكما ناجحاً؟ هل كان يضربك؟ هل هذا هو السبب؟»

فأجابت إيمي وهي تهز رأسها بضعف بينما كانت تستند إلى جدار حجري خلفها «كلا. ولكنني لا استطيع التحدث

في هذا الأمر، يا جون. كان عليّ ان اتركه، ولا يمكنني العودة إليه. هذه هي المسألة.»

فهز رأسه ببطء وهو يقول: «لا بأس، لا بأس، ولكنك بالتأكيد، قد تورطت مع رجل هائل. انه الإزعاج بعينه، يا إيمي. إنه لم يعجبني.»

فأغمضت عينيها إزاء القلق والاهتمام الذي بدا في وجه جون، وهي تفكر في أنه لا يفهم شيئاً. فهو حنون ورقيق وذو روح فكاهية ويملك كل ما تريده إمرأة في رجل. مزعج؟ ربما، ولكن هذا يأتي ضمن اسباب...

وقطع عليها جون مجرى افكارها وهو يعود إلى مقعده في السيارة، قائلاً: «سأوصلك بسيارتي إلى بيتك.» وشعرت للحظة بندم عميق لتوريطه بكل هذا. ذلك أن له في مشكلاته الشخصية ما يكفيه بالنسبة إلى ما يعانيه من آلام وإرهاق في العلاج الذي يتلقاه لكي يعيد ساقيه إلى حالتهما الطبيعية. وكان هذا هو سبب مجابهته لعداء بلايد بهذه الطريقة البعيدة عن طباعه. ذلك ان جون كان دوماً من يبدأ بتهدئة الأمور. انها لم تره قط من قبل بمثل هذه الحالة.

جلست في المقعد بجانبه بهدوء، وازداد شعورها بالندم وهي ترى الطريقة الخاصة التي يقود بها السيارة. لقد كان جون يكره عجزه، وضعفه اللذين ظهرا تماماً أثناء تلك المجابهة التي حدثت بينه وبين بلايد. ما كان لها ابداً أن تأتي إلى هذا المكان، وما كان لها أن تبقى فيه.

وعندما تهيأت للنوم بعد ذلك بساعة، أمضت فترة طويلة تنظر إلى نفسها في المرآة المستطيلة القائمة في باب خزانة ثيابها. تأملت تكوين وجهها وفكرت بألم، في أنها لا

تشبه ساندرا بأي شكل كان. ولكنها يجب أن لا تفكر الآن في ساندرا. لقد ملأ هذا قلبها بالمرارة. يا ليتها ما كانت فكرت فيها، ولم تطع ذلك الحافز القوي الذي دفعها إلى محاولة اصلاح الأمر بينهما. لقد كان هذا سبباً لتحطيمها قلب بلايد وكل شيء كان بينهما. انها لم تعد تستطيع تحمل عذابه، لم تعد... وكان وجهها مازال مبللاً بالدموع عندما استغرقت بعد ذلك بساعات، في نوم مضطرب حافل بالكوابيس.

لم تكن إيمي تحب أيام الآحاد، فهي أثناء أيام الأسبوع، وخصوصاً يوم السبت، كانت تبقى مشغولة على الدوام في المطعم منذ ساعة الغداء إلى ساعة متأخرة من الليل. وبوجود جون الذي كان يشكل لها سنداً معنوياً، لم تكن اوقاتها سيئة تماماً. ولكن جون كان يذهب لزيارة أمه والتي كانت تبعد عنه حوالي الخمسين ميلاً، وذلك ايام الآحاد. ومن دونه، كاد الفراغ يقتل تفكيرها.

تنهدت وهي مستلقية في فراشها صباح ذلك الأحد الذي تلا عودة بلايد إلى حياتها. وأخذت تراقب تراقص اشعة الشمس على الجدار امامها. لقد مضى ثلاثة ايام على تلك المواجهة الرهيبة خارج المطعم، دون ان ترى بلايد بعدها، مع انها علمت من جون أنه مايزال في تلك الأنحاء. فقد اهتم جون بأمر بلايد حتى علم أنه استأجر كوخاً في ضاحية القرية، فاقبل إليها يخبرها بذلك عابساً وقد بدا الغضب والقلق في عينيه: «لقد استأجره لمدة ثلاثة اشهر، إلى ما تظنينه يهدف، يا إيمي؟» هزت كتفيها ببطء. كانت تتمنى لو تعلم. ولكن مهما كان ذلك، فهو لن يكون لمصلحتها. كانت متأكدة تماماً من ذلك.

ووصلت إلى الطابق الأسفل في الوقت المناسب لكي

تتناول افطارها مع السيدة كوكس. وكانت المرأة المسنة تحب هذا منها لكونها كانت وحيدة اغلب اوقاتها، كما كانت تشعر إيمي. وكانت تضع بيضتها المقلية على الخبز المحمص، عندما ألقت بسؤال خطر لها، جعلها جوابه تتمنى لو أنها لم تفتح فمها.

لقد سألتها، بينما كانت المرأة تملأ إبريق الشاي بالماء المغلي: «هل رأيت بلايد في اليومين الماضيين؟»

فنظرت إليها السيدة كوكس بحذر وهي تجيب: «تعنين زوجك؟ لم أره منذ الصباح الذي تلا تلك الليلة التي قابلته فيها. لماذا؟»

فسألتها بصوت ضعيف، متمنية أن تكون هذه المرأة قد قابلته مصادفة في الشارع، أو السوق، أو أي شيء: «هل جاء لرؤيتك ذلك الصباح؟»

فأجابت هذه وهي تنظر في عينيها بثبات: «نعم، يا فتاة، ولكن لا بد لي من القول إنني لم أحب يوماً الأميركيين، ولكن هذا الشخص...» وأومأت برأسها وهي تسكب لنفسها فنجان الشاي الخامس ذلك الصباح، ثم تتابع قائلة: «إنه انسان طيب.» كان قولها هذا بمثابة لوم خفيف لإيمي، ولكن هذه شعرت به كصفعة على وجهها. كيف لها أن تخبر هذه المرأة بأنها توافقها تماماً على رأيها هذا فيه؟ وبأن بلايد ليس طيباً فقط، بل اكثر من طيب؟

وعادت تسألها بحذر: «وماذا كان يريد؟» ولكن السيدة كوكس هزت رأسها برفق، وعيناها مسمرتان على وجه إيمي المتوهج، وهي تقول: «اظن أن هذا شيء خاص بيني وبينه، يا عزيزتي. إنني لا أحب التدخل في شؤون أحد، كما تعلمين. اسأليه هو عندما ترينه.» ولم يكن في صوت المرأة

أي خبث أو سوء نيّة، حتى ولا معنى الاتهام. ولكن إيمي كانت اكثر حكمة من أن تتابع الحديث في هذا الأمر، وكان لا بد لها من أن تحترم نزاهة هذه المرأة لو كان الظرف مختلفاً، ولكنها الآن تمنت لو بإمكانها أن تهزها هزاً، وهي تقول بهدوء: «ربما لن أراه بعد الآن.» ولكن سرعان ما ثبت خطأها عندما رن جرس الباب بعد ثانية واحدة. لتسمع بعد ذلك صوته يسأل السيدة كوكس: «هل هي في الداخل؟»

فحاولت ابتلاع لقمتها، التي اصبحت في فمها كقطعة عظم، وذلك بجرعة كبيرة من الشاي، في الوقت الذي كان بلايد يدخل فيه الغرفة بتكاسل، قائلاً: «صباح الخير.»

لم يحاول أن يبتسم أو يلطّف من الموقف باي شكل، بل كانت عيناه مثبتتين في عينيها وقد بدا فيهما من العنف والغضب ما جعل معه ذلك الجسم القوي وكأنه شحن بالكهرباء، بينما قدت ملامحه من الحجر.

وبادرته قائلة بعد أن خفت عليها الصدمة: «لقد كنت أقول للسيدة كوكس انني ربما لن اراك بعد الآن.»

فنظر إليها فترة طويلة دون أن يجيب. وارتجفت عندما انضمت إليهما السيدة كوكس، لتستحيل عند ذلك ملامحه فتصبح غاية في الرقة واللطف. ولكن السم كان مايزال تحت ذلك القناع وهو يقول لها: «أهذا ما تتمنينه؟» كان يتصرف بلطف بالغ جعل السيدة كوكس تهمهم راضية وهي تخرج لتحضر فنجاناً له من المطبخ. ولكن تلك العينين السوداوين كالفحم، كانتا بقسوة الحديد. وأدركت إيمي أن تعليقه السالف كان بحدة السيف، وأن المعنى الذي تضمنه كان يختص بها وحدها.

وبعد صمت نصف دقيقة، قال بلطف: «انك ستخرجين معي

في نزهة بالسيارة نتغدى فيها في مكان عام.» وكانت السيدة كوكس قد ابطأت في العودة من المطبخ ما جعل إيمي تتكهن بأن المرأة تعمّدت منحهما فرصة يتحدثان فيها معاً، بينما تابع هو قائلاً: «فإذا كان لديك ارتباطات أخرى، عليك إلغاؤها.»

فثارت لهذه الغطرسة البادية منه، وتصلب جسدها وهي تجيبه وقد بدا العداء في وجهها: «إنني آسفة، يا بلايد. أخشى أنني لن أتمكن من ذلك...»

فقاطعها قائلاً برقة بالغة: «المعذرة، إذ يبدو أنني لم اتكلم بوضوح. انني لم أكن ادعوك يا إيمي، وإنما كنت اخبرك بما انتظر منك أن تقومي به.»

فقالت: «والآن، اسمعني جيداً...»

فقطع عليها جوابها الغاضب بأن رفع وجهه وهو ينظر إليها بعينين ضيقتين، وفجأة شعرت بشخصيته المسيطرة تهز كيانها وقد تملكها شعور الفريسة الضعيفة امام الصائد المفترس. إنه يخيفها! واذهلها هذا الشعور كما حيرها اكثر مما كانت تتصور. ولكن هذا الذي امامها لم يكن بلايد الذي عرفته ايام تعارفهما وفي فترة زواجهما القصيرة. فهذا الرجل، بشخصيته المسيطرة بالغة التأثير، كان مخيفاً غريباً عنها، وذا ملامح كئيبة باردة متفحصة، والعينان اللتان كانتا دوماً تشعان حباً ودفئاً، قد اصبحتا قاسيتين مخيفتين لا يسبر غورهما.

وعندما تحولت عيناه النفاذتان عن وجهها الشاحب لتجولا في أنحاء الغرفة، سألها: «هل يعجبك هذا المكان؟» امكنها ان ترى في ذلك الوجه الخشن ومضة خاطفة من الفضول والارتباك.

فعادت إلى ذهنها صورة ذلك المنزل الخرافي الذي كانت تعيش

www.rewity.com

فيه معه في لندن. الأرض المرصوفة بالخشب المزخرف والمفروشة بأفخر أنواع السجاد الصيني المصنوع من الحرير. القطع الأثرية البالغة وبحيرة السباحة الداخلية، والأزهار التي يعبق شذاها في الجو والتي كان يبدلها خادم خاص يومياً قبل ان يستيقظ من في المنزل بوقت طويل. وقد كان لوفرة الأزهار في المنزل التأثير الأكبر عليها لدى زيارتها له لأول مرة. وبعد زواجهما، أبدت احتجاجها لسرعة استبدال الأزهار تلك في حين كانت ماتزال غضة يانعة، ولكن جوابه الواضح، حينذاك، والذي ما برحت تعود إليه مرة بعد مرة في خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة: «ان ذلك يسرني. على تلك الأزهار أن تذهب وهي بعد نضرة، وذلك قبل أن يشوب جمالها شائبة، ما يجعل منظرها مؤلماً. انني لا أحب رؤيتها تذبل وتموت يا إيمي. ان ذلك يثير اعصابي.»

لقد صدمها، في ذلك الحين، الحزن الذي ساد ملامحه، فغيرت الموضوع بسرعة، محاولة التسرية عنه، ولكن لتعود كلماته تلك، بعد اسابيع وإثر لقائها بساندرا، لتعود إلى ذهنها بوضوح جعلها تشعر بالغثيان.

وأجابته لسؤاله بهدوء: «نعم، إنه يعجبني. إنه مختلف جداً عن منزلك، ولكن له جماله الخاص و...»

فقاطعها بحدة قائلاً: «انني لم أكن اعني هذا. فأنا لم أكن اقارن شيئاً بشيء، ولكن فقط لأنه كان يبدو عليك انك تحبين لندن كثيراً... كنت تفضلين الأضواء، والأمكنة الفسيحة...»

فقالت ببساطة وهي تغض من بصرها إزاء نظراته التي كانت تتفرس في وجهها: «ربما السبب هو انني كبرت.»

فقال بصوت عميق واكثر رقة من السابق: «ولكنه كان منزلك، كما تعلمين، كما هو منزلي.»

فقالت: «كلا، لم يكن كذلك قط، بالنسبة إليّ.» ولم تكن تريد بقولها هذا، ان تؤذيه أو تخاصمه، ولكنها فعلاً لم تكن تشعر بجو البيت في ذلك القصر القائم في ذلك الحي الهادىء في إحدى ضواحي لندن. وتابعت تقول: «لقد كان طبعاً رائع الجمال والعيش فيه بالغ الرفاهية، ولكنني لم اكن اشعر فيه بذاتي. كان كل شيء فيه معداً ومنظماً قبل سنوات من دخولي حياتك، وبقي على ما هو عليه بعد زواجنا دون أن يتغير فيه حتى زهرية واحدة.»

فقال: «إذا كان هذا ما كنت تشعرين به، لماذا لم تخبريني إذن؟» وكانت في عينيه نظرة ذعر وهو يقول ذلك ما جعلها تشعر بالذنب إلى درجة بالغة، فأجابت بسرعة: «لأن ذلك لم يكن مهماً في ذلك الحين. ومازال كذلك، في الواقع، ما كان لي أن اقول هذا. إني آسفة. لقد كان منزلاً رائعاً، وكان حظي كبيراً...»

فقاطعها قائلاً: «ويح لحظك هذا.» وكان في صوته من الغيظ ما جعلها ترفع رأسها بحدة، ولكن وجهه كان جامداً نائياً وهو يتابع قائلاً: «لم اكن اريدك أن تعتبري نفسك محظوظة لكي أزهو أنا بذلك. كان كل ما كنت افكر فيه هو الحب المتبادل، وزواجنا...» وسكت فجأة مشيحاً بوجهه عنها بعنف وهو يجتاز المسافة نحو النافذة بخطوتين حيث وقف وظهره إليها وهو يحدق إلى الخارج.

وارتفع صوت من خلفهما يقول: «انني اعرف ما تفكر فيه، أيها الشاب...» لقد كانت إيمي نسيت كل شيء عن السيدة كوكس التي اقبلت الآن تحمل فنجان شاي، ولكنها سرت لهذه المقاطعة، بينما كانت المرأة تتابع قائلة: «انك تفكر في تلك الحديقة المهملة، أليس كذلك؟»

فاستدار بلايد بسرعة وقد عاد إلى وجهه قناعه المعتاد الباسم وهو يقول: «انها بحاجة إلى بعض التشذيب، أليس كذلك؟»

فأجابت: «بحاجة إلى كثير من التشذيب، وليس بعضه. لقد ازدادت اعمالي بالنسبة إلى المنزل والنزلاء وذلك منذ وفاة زوجي، فلم استطع العناية بالحديقة.»

فقال بلايد بمرح: «يمكنني أن أمضي ساعة أو اكثر في تنظيم حديقتك هذه، إذا شئت. فإنني اشعر بالمتعة في العناية بالحدائق، هذا مادامت القهوة موجودة ساخنة على الدوام.»

وأخذت إيمي تتساءل بذهول عما قاله من أنه يشعر بالمتعة في العناية بالحدائق. ذلك أنه على حد علمها، لم يكن يطيق حتى التشاور بشأن الحديقة مع البستاني الذي كان يأتي أحياناً لتفقد الحديقة وتنظيفها من الشوائب والعناية بها.

وكان هو يتابع قائلاً: «هذا إذا لم يكن لدى إيمي مانع.» وادار وجهه الخالي من التعبير إليها وهو يبتسم.

ليس لديها مانع؟ كم كانت تود لو تقذف بممانعتها في وجهه. ولكن سرور السيدة كوكس البالغ بعرضه هذا، جعلها تبتسم بضعف، بينما كانت عيناها تقولان غير ذلك، أما هو، فاستدار نحو المرأة وهو يومىء برأسه قائلاً: «إذن، فقد اتفقنا. والآن، إذا لم يكن لديك مانع، فإنني اعتذر عن تناول فنجان الشاي هذا لأنني سآخذ معي إيمي لقضاء النهار في الخارج.»

فهتفت: «ما أروع هذا. هيا، اذهبا ومتعا نفسيكما، أنتما الاثنين.» كان واضحاً أنه المفضل لديها.

وأمسكت نفسها إلى أن اصبحت في سيارته، فانفجرت به كالعاصفة. ذلك أن بنطال الجينز والكنزة الفضفاضة اللتين كانتا ترتديهما، لم يكونا يتلاءمان مع هذه السيارة المترفة.

وكانت قد رفضت كلياً الصعود إلى غرفتها وتغيير ملابسها بملابس افضل، وهكذا كانت ملابسها هذه هي التي كانت صممت على تمضية النهار بها في المنزل، وربما تصعد بها التلال بعد الظهر، وإذا لم يعجبه هذا، فعليه أن يبحث لنفسه عن عمل آخر.

وكانت تفكر في هذا بحقد بينما كان هو يتخذ مقعده بجانبها وقد بدا تماماً رجل اعمال ثري يمضي عطلة نهاية الأسبوع.

وحركت رأسها فتموج شعرها الذهبي لحظة بينهما، قبل أن تستدير إليه قائلة وعيناها تقدحان شرراً: «ما هو هدفك، يا بلايد؟ هل هذا كله جزء من عقابك لي؟»

فنظر إليها بهدوء وقد بدا عليه الإسترخاء التام وهو يسألها بكل برود: «أرجو المعذرة، هل لك أن توضحي كلامك؟»

فأجابت غاضبة: «انك تعرف تماماً ما اتكلم عنه، انك تحاول باظهار كل هذه الصداقة نحو السيدة كوكس، ثم عرضك عليها أن تقوم باصلاح حديقتها، تحاول أن تؤذيني... أن تشكك هؤلاء الناس بي وتحقرني عندهم، ومن ثم...»

قال وقد اسود وجهه غضباً: «كفى، امسكي لحظة عن الكلام. لقد سبق واخبرتك من قبل انك تخليت عن كل حق لك في استجوابي عن افعالي وتحركاتي مهما كان نوعها، فأنا الآن رجل حر افعل ما أشاء. أليس هذا ما تريدينه؟»

ففتحت فمها لتجيب، ولكن منطقه اسكتها، بينما عاد هو يقول: «إذا كنت تشعرين بأن وجودي في هذا المكان قد يكون فيه احراج لك ولصديقك المحترم، فهذا شيء لا يخصني. ذلك انك تصرين، وكذلك هو، على انكما مجرد صديقين. هذا حسن، فلماذا إذن هذا الكلام عن تحقيرك كما تقولين؟» وسكت ينتظر منها الجواب، وازدردت هي

ريقها بصمت، ورأسها يدور، وأخيراً قالت: «انني...»

وسكتت تبحث عن كلمات تقولها، بينما كان قلبها يخفق بعنف. كيف بإمكانها أن تخبره أن ما يقلقها ليس امكانية احراجه لها بوجوده، ولكنه خوفها مادامت بصحبته، من أن تكشف نفسها، وذلك في أي دقيقة وأي لحظة. ومن أنه قد يدرك أنها مازالت تحبه، وأثناء ترددها هذا، ألقت نظرة على وجهه جعلت الدم يجمد في عروقها لما بدا على ملامحه من غموض.

وأخيراً قال: «يبدو واضحاً انك لا تجدين ما تقولينه. حسناً، استطيع ان افهم السبب.» وكان في صوته تهديد خفي ارسل ارتجافاً في كيانها، وعندما استقام في جلسته يدير المحرك، كان وجهه جامداً وهو يتابع قائلاً: «أما بالنسبة إلى السيدة كوكس، فعرضي عليها اصلاح حديقتها كان حقيقياً. ذلك أن لدي طاقة فائضة حالياً وافضل ان اصرفها في عمل شاق على ان اصرفها بالوقوف تحت الدوش مرات لا تحصى في النهار. انني لم اتعود على الفراغ.»

فاحمر وجهها. ولكنها اجابته قائلة: «يمكنك أن تعود إلى لندن حيث عملك، وحيث... النساء كثيرات إذا كان هذا ما تريد.» وبدا الألم في صوتها الخافت وهي تقول هذا، فشعرت بجسمه يتصلب بجانبها لحظة طويلة، ليعود بعدها إلى الإسترخاء بعد أن تنفس غاضباً، وهو يقول عابساً: «سأسدي إليك جميلاً وهو أن انسى قولك هذا. عندما اتخذتك زوجة لي، يا إيمي، كان ذلك التزاماً أبدياً مني. وأنا اجد من الصعب عليّ نسيان ذلك.»

فغاصت في مقعدها وقد اتسعت عيناها. إنه يجعل الأمر في منتهى الصعوبة... وهي ستجن حتماً قبل أن ينتهي كل شيء.

وبعد أن اجتازت بهما السيارة عدة أميال ران اثناءها عليهما صمت مؤلم، سألته قائلة: «إلى اين نحن ذاهبان؟»

فأجاب وهو يلقي عليها نظرة سريعة: «ليس لدي فكرة. لقد رأيت أن نقوم بجولة في هذه المنطقة قبل أن نقف عند احد مطاعمكم الإنكليزية فنتناول الغداء. موافقة؟»

فأجابت: «ليس لدي مانع.» كان صوتها فاتراً، وسمعته يتنفس بغيظ. حسناً، ليس بيدها شيء. فقد كانت هي نفسها تنزف في اعماقها... كانت تنزف ببطء حتى الموت. لم تكن لتتصور قط من قبل أنه سيكون بإمكانها احتمال مثل هذا العذاب النفسي المبرح.

كانت المنطقة الريفية التي كانا يجولان فيها هادئة ساكنة. ذات تلال خضراء وجداول جارية. كما كان شذا الأزهار البرية يعبق في الجو. كان جمال الطبيعة الساحر يحيط بهما، ولكن التعاسة كانت تعمي عيني إيمي عنه، وهي تفكر باكتئاب، في انها افسدت كل شيء. هل بإمكانها أن ترى بلايد يومياً دون أن تكشف أمرها؟ كلا أبداً...

سألته بحذر بعد صمت قصير: «هل يحتمل عملك أن تنقطع عنه مدة طويلة كهذه...»

فقاطعها ببرود: «ايهمك هذا؟ لا تخبريني أن مصلحتي تهمك إلى هذا الحد. أم انك تريدين أن تتخلصي مني بأسرع وقت ممكن؟»

فقالت: «كلا، فقط لأنه بعد ما عدنا...» وسكتت فجأة، فألقى عليها نظرة سريعة غاضبة وهو يسألها وكأنه قرأ افكارها: «بعدما عدنا...؟»

فعادت تقول: «بعدما عدنا من شهر العسل، وجدت امامك

تقصيراً كثيراً في اعمالك.» ولفظت كلماتها الأخيرة بلهجة يائسة. أي غباء جعلها تأتي على ذكر شهر العسل امامه؟ وعصر الحزن قلبها. ما أشبه هذا بالتلويح للثور بوشاح احمر. ورد عليها باختصار وبرود وقد اظلم وجهه: «انه هذا شأني الخاص وليس شأنك.»

فعضت شفتها السفلى، ثم قالت بعد برهة: «بلايد. ألا يمكن أن نتصرف كشخصين عاقلين؟ فلندع الطلاق يحدث بسهولة قدر الامكان.»

فرد عليها بهدوء قائلاً: «ولكنني لا اشعر بهذه العقلانية. في الحقيقة، كل شيء إلا هذا الأمر. إن ما أود أن اقوم به نحوك...» وسكت فجأة وقد توتر صوته، ومضت دقيقة قبل أن يعود فيقول بصوت هادىء رقيق فيه نبرة تهكم: «فلنقل فقط انني لا اشعر بالعقلانية، ثم نترك الأمر عند هذا الحد. فلنستمتع بهذه النزهة حالياً، وبعد الغداء يمكننا أن نتحدث في الأمر.»

فاعترضت قائلة: «ليس لدينا ما نتحدث عنه.»

فأجاب: «بل العكس. فإن علينا أن نغسل كل ثيابنا الوسخة قبل أن نبدأ.»

فعادت تغوص في مقعدها، ثم تغمض عينيها برهة. إن عليها أن تتوخى الحذر، الحذر الشديد ذلك أنه إذا استطاع أن يلم بطرف من المسألة...

وعاد هو يقول ساخراً بجفاء: «لقد علمت أن بطلك الفارس الهمام يزور أمه. انني اعجب لأنه لم يأخذك معه، مخفياً إياك في صندوق السيارة لكي لا تصل إليك يدي الأثيمة.»

فأجابت قائلة: «كيف علمت أن جون...» وسكتت وقد خطرت ببالها فكرة، فأكملت قائلة: «آه، انها السيدة كوكس بالطبع.»

وتابع هو قائلاً بصوته الساخر: «ألم يقدمك بعد إلى الماما؟ أم أنها امرأة رجعية لا تريد أن يصادق ابنها الصغير امرأة متزوجة؟»

فقالت بعنف: «لا أدري لماذا تحاول أن تجعل من جون مدلل أمه. انه ليس كذلك.»

فقال ببطء: «أليس هو كذلك؟ بالمناسبة، ما هي بالضبط صفات جون؟»

فأجابت بحرارة: «إنه لطيف ورقيق وصبور.» ذلك انها لم تر من جون سوى الرقة، وهي لن تدع بلايد، حتى بلايد، ينال منه بسخريته.

فقال بسخرية قاسية: «انها فضائل لها قيمتها بالنسبة إلى جرو مدلل، ولكنه ليس افضل وصف عاطفي ملتهب سمعته في حياتي. هل هذا أحسن ما يمكنك أن تصفي به فتاك المسكين؟»

فأجابت بغضب: «ان محاولة التحدث إليك هي مستحيلة، لا أدري لماذا تحملت عناء الحضور إليَ هذا النهار...»

فأجاب بلطف: «حسناً، من المؤكد أن ذلك لم يكن للتحدث معاً. لقد أدركت عندما رأيتك مرة أخرى، أن الجواب لا يمكن أن يكون بالحديث فقط، بالرغم من أن الحديث سيكون ذا فائدة فيما بعد.»

فقالت بأنفة بالرغم من أنها لم تستطع تهدئة خفقات قلبها المتسارعة: «فيما بعد؟ لا أراك تفكر حقاً...»

فقاطعها قائلاً: «ان ما أفكر فيه سيحيرك، وليس أيّ منه جيداً بالنسبة إليك، فلماذا لا تسكتين لكي نستطيع الاستمتاع بالحاضر؟»

وهكذا تناولا غداءهما في نزل صغير بجانب الطريق قد انتشرت موائده القليلة على العشب في الحديقة تحت ظل شجرة كرز ضخمة. وكانت إيمي قد اختارت تناول الغداء في العراء بعد أن ترك بلايد الخيار لها.

كانا يرشفان عصير الفواكه وقد ران عليهما صمت متوتر وأشعة الشمس تتخلل غصون الشجرة فوقهما ملقية صوراً مرقطة على مائدتهما الخشبية القديمة، عندما قال بلايد فجأة: «لقد نحل جسدك.» فأجفلت إيمي دون إرادة، ما جعل يدها تهتز بالكوب فيسيل منه العصير، بينما تابع هو قائلاً: «وكذلك اصبحت عصبية. هل هذا بسببي، ام انك مثقلة الضمير إزاء حياتك المنحرفة هذه؟»

اجابت قائلة: «لا بد أن هذا هو السبب، حسب قولك هذا، حيث انك تعتبرني امرأة منحرفة.»

فسألها: «اتنكرين هذا؟ كلا، لا تجيبي عن هذا السؤال، فأنا لن الجئك إلى حلف يمين كاذب اكثر مما سبق وفعلت. آه، ها قد اقبل الطعام.» وضاعت الكلمات الثلاث الأخيرة إزاء اطباق الطعام المؤلف من السلمون بالزبدة والبازيلا والبطاطا.

وشكرت المرأة باسمة، بينما كلمات جون تتردد في ذهنها، وهو يصفه بأنه الازعاج بعينه. وأخذت تحدق في بلايد الذي كان يتناول طعامه بشهية واستمتاع. والتوى قلبها ألماً وهي تتأمل ملامحه الخشنة الوسيمة وكتفيه العريضتين. لشد ما تحبه. وخفضت بصرها إلى طعامها مرغمة نفسها على تناوله ببطء. لم تكن تشعر بشهية للطعام، ولا تظن انها ستشعر بذلك مطلقاً مرة أخرى...

كانت تشعر بنظراته النفاذة تستقر عليها بين حين

وآخر، وذلك دون أن ترفع رأسها. وعندما دفعت، أخيراً، طبق طعامها الذي لم تنهه، لم تدهش إذ سمعته يقول: «لا شهية للطعام؟ لماذا؟»

فأجابت بصوت أجفلت هي نفسها لحدّته: «لا تسألني. انني لست جائعة، وهذا هو كل شيء.»

فتمتم بجفاء: «يبدو عليك وكأنك لم تشعري بالجوع منذ أسابيع. أو ربما كان هناك ما يشغلك عن الأكل.»

فقالت بصوت ينضح بالألم: «بلايد، ربما لا تشعر بأي احترام نحوي الآن، ولكن صدقني انني لم أجد أمر انهاء زواجنا سهلاً. والظاهر أنه قد أثر عليّ، وهذا شيء طبيعي.»

فمال فجأة إلى الأمام، محدقاً في أعماق عينيها بنظراته وهو يقول: «هكذا إذن؟ هل هذا كل ما عندك لتقوليه لي بعد كل ما فعلته؟ (إنني لم أجد أمر انهاء زواجنا سهلاً، والظاهر أنه قد أثر عليّ)؟» وكان يردد كلماتها تلك بغضب مر اخترق قلبها.

فحاولت أن تبتعد عنه قائلة وهي تهتز بعنف: «دعني وحدي.»

«لا سبيل إلى ذلك، أيتها الحبيبة، فأنت مازلت زوجتي حالياً شئت ذلك أم أبيت. وأنا ارفض أن أبقى جالساً أنظر إلى ما يجري دون أي تصرف من جانبي. ماذا تظنينني؟»

وعندما انحدرت دموعها، التي لم تتمكن من اخفائها، سكت فجأة، ثم انفجر قائلاً: «إيمي. ما الذي جرى لك يا فتاة؟ ما الذي دخل في عقلك فأفسد حياتنا؟» وانتهى صوته بأنين خافت. وكانت المرئيات امامها غائمة بينما أخذت هي تشهق باكية، وتشهق وتشهق.

كان هذا آخر شيء تريده أن يحدث، ها قد علم الآن بضعفها وهشاشتها، وأن هنالك غموضاً في الأمر. ان عليها أن تكون قوية... أن تقنعه بأنها تعرف ما هي مقدمة عليه! ولكن دون فائدة، كان الشوق الحارق يؤرقها، ليلة بعد ليلة. كانت تشعر بخوف مميت من المستقبل كما كانت الوحدة تكاد تقتلها. ولكن علمها بأنه لم يعد يهتم بها، وبأنه يعتقد بأنها تركته لأنها لم تعد تحبه، كان كل ذلك أسوأ من كل ما كان المستقبل يحمله لها. كانت تريد حبه، وأن يشاركها عبئها هذا، فقط لكي يبقى موجوداً بقربها... وسرعان ما عاد إليها تعقلها مصحوباً بالخزي من نفسها، كيف امكنها أن تفكر بهذا الشكل؟ فهي إذا كانت تحبه، كيف يسمح لها قلبها بجره معها إلى الهاوية؟ فما ذنبه هو في كل هذا؟ ان عليها أن تكمل طريقها في الحياة بمفردها...

قالت بسرعة: «إنني بخير الآن.» ثم فتحت حقيبتها لتخرج منها منديلاً مسحت به وجهها، وكانت شفتها السفلى مازالت ترتجف فعضتها كي تمنعها من ذلك، بينما كانت عيناه السوداوان مسمرتين على وجهها.

وأخيراً، قال ببطء: «انك لست بخير أبداً، إنني افكر الآن في أن آخذك إلى مكان ما حيث نكون بمفردنا لنتكلم بهدوء.»

ففاجأها تغيير موضوع الحديث هذا، ما جعلها تحملق فيه دون أن تفهم شيئاً، وسألته بصوت خافت وهي تتساءل عما إذا كانت اذناها تخدعانها: «ماذا قلت؟ إن جون...»

فقاطعها ببطء وقد ساد البرود ورباطة الجأش ملامحه: «فليذهب جون إلى الهاوية.»

لم تعرف لماذا ذكرت اسم جون في هذه اللحظة الدقيقة...

وعاد يقول وعيناه لا تتحولان عن وجهها: «إنني لم أخرج بعد بنتيجة من كل هذا. ولكن إذا كنت أنت وذلك الصبي نموذجاً لاحلام الصبا، فليساعدنا الحظ إذن.» وكان صوته وهو يتكلم، هادئاً وكأنه كان يحاول التحكم في مشاعره، وهو يتابع قائلاً: «فإن لم تكونا على علاقة ما، كما تدعيان أنتما الاثنين، فلماذا تركتني، إذن، لأجله؟ هل تشعرين بالشفقة عليه، يا إيمي؟ هل هذه هي المسألة؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنت مخطئة. إنه ليس النموذج الذي يجذبك. واجهي الحقيقة يا إيمي.»

فنظرت إليه بغضب وهي تقول: «كفى، كفى حديثاً بهذا الشكل.»

فاقترب منها وهو يزمجر قائلاً: «لماذا؟ هل أخطأت أنا في الفهم أم أصبت؟ ربما أنت حبيبته الآن... اصحيح هذا؟»

وانطلقت يدها إلى وجهه بصفعة دوّت في تلك الحديقة ما جعلهما، هما الاثنين، يجمدان في مكانهما.

وأخيراً رفع حاجبه الأسود محذراً بشكل هزلي وهو يقول: «حسناً؟» ولكن ملامحه كانت جامدة لا تعبر عن شيء بينما كان يقف ببطء وهو يتابع قائلاً: «هل هذا يعني نعم أم لا؟»

وعندما تبادلا النظر، خطر ببالها، فجأة، أنه يعبث بها ويوبخها ويبحث عن نقاط الضعف فيها.

وعاد هو يقول: «حسناً، يا زوجتي الصغيرة هل نتمشى في هذه الناحية الريفية الهادئة التي تحبينها كثيراً، لنصل إلى مكان هادىء نكون فيه وحدنا؟»

كانت القسوة تنضح من سخريته هذه، ولكن بالرغم من

التوجس الذي بدا في عينيها، وقشعريرة الخوف في جسدها، تملكها شعور غريب بالارتياح، إذ يبدو أنه لم يتكهن بالحقيقة وإلا لما عاملها بهذا الشكل. ولكانت عيناه السوداوان الباردتان مليئتين بالعطف، ولتبدلت ملامحه العنيفة هذه. إنه يحب الأشياء الجميلة الخالية من أي عيب وهي لم تعد كذلك قط.

ان عليها الآن أن تكون غاية في القوة، وأن تقنعه بأنه لم يعد يؤثر عليها، وأنها كانت تعني كل كلمة بالنسبة إلى زواجهما.

وعندما عادا إلى السيارة، سار بها عدة كيلومترات ليتحول بعد ذلك إلى طريق ضيق قامت على جانبيه الأشجار والنباتات الساحقة. وسألته بدهشة: «هل تعرف هذه المنطقة؟» ذلك أنه كان يبدو وكأنه يعرف طريقه جيداً.

فأجاب: «لقد سألت عنها في المطعم، فأشاروا علي بسلوك هذا الطريق الذي سنصل منه بعد لحظات إلى بوابة ننفذ منها إلى أرض مغطاة بالأعشاب.» وفعلاً، ظهرت البوابة القديمة بعد ثوان قليلة حيث اخترقاها بالسيارة صاعدين في طريق قادهما إلى حيث رائحة البراري والأعشاب نفذت إليهما من نوافذ السيارة.

أوقف بلايد السيارة في فجوة صغيرة في قمة التل. وما أن سكت هدير السيارة حتى ساد السكون المكان حولهما. ونزل من مقعده ليستدير حول السيارة فاتحاً لها الباب قائلاً: «هيا بنا، دعينا نتمشى.»

كانت قد توقعت منه أن يبدأ باستجوابها على الفور، ولكنه بدلاً من ذلك، بدا عليه الاستغراق في نوع من الصمت

وهو يسير بجانبها، إلى أن وصلا إلى ناحية كان فيها شلال يتدفق فوق الصخور من جدول ضيق.

وقال ببرود وخشونة بعثت الرجفة في جسدها: «لقد آن أوان المكاشفة يا إيمي، وظهور الحقيقة، ولا تنسي أنه ليس هنا سوانا، أنا وأنت، وأميال من المروج القفراء.»

فقالت متظاهرة بالهدوء وضبط النفس: «هل تهددني يا بلايد؟ لأنه إذا كان الأمر كذلك...»

فقاطعها ساخراً: «لأنه اذا كان الأمر كذلك، فسأنال لطمة على يدي؟ انما لا تقلقي على كل حال، يا حبيبتي، فأنا لا اهدد بالإضرار بك، وإنما فقط...» وسكت متأملاً لحظة ثم اكمل قائلاً: «انما فقط اعرض التزامي بإداء واجباتي تجاهك.»

وما أن تراجعت خطوة إلى الوراء وقد اتسعت عيناها ذهولاً، حتى ضحك بنعومة بالغة، ولكن ضحكته هذه احدثت في كيانها قشعريرة اكثر من اي غضب عاصف يصدر عنه.

الفصل الرابع

عندما أخذت ايمي تحدق في هذا الرجل الذي كانت تعهدت، في عقد الزواج أن تحبه وتحترمه وتطيعه طوال حياتها، راعها منه ذلك التهديد الهائل البادي في تلك الهوة الفارغة الحالكة السواد والتي هي عيناه.

سألها بلايد بهدوء بعد دقيقة صمت: «ما هو الوقت الذي كنت تظنينه سيمضي قبل أن أعثر عليك؟ هل توقعت مني محاولة ذلك؟»

فأجابت وهي تنظر إليه، ولكن وجهه الآن قد أصبح جامد التعبير: «في الواقع، كلا. إنني لم أعرف ما الذي كنت ستقوم به.»

فقال بهدوء أزعجها للغاية: «لقد تحريت عن صحة إصابة جون، يبدو أنها حقيقية.»

فهتفت وقد نسيت حذرها: «فعلت ماذا؟»

فضاقت عيناه لارتفاع صوتها وتابعت قائلة: «ما الذي جعلك تقوم بذلك؟ وهل بإمكان أحد أن يؤلف قصة كهذه؟»

فأجاب ببرود: «إن ما يستطيع أن يقوم به الناس، يدعو إلى الحيرة، يا حبيبتي. ويجب أن تكوني أنت على علم بهذا قبل غيرك.» وأشاح بوجهه عنها محدقاً في ما وراء الأرض الخضراء، ثم تابع قائلاً: «لقد كنت أرجو أن يكون الأمر كذباً. ولكن بعد التحقيق، كانت النتائج ضد توقعاتي. والآن عليّ أن أجد لنفسي طريقاً آخر يرشدني إلى الحقيقة. أليس كذلك؟»

لم يكن ينظر إليها وهو يتكلم. وشعرت بالبرودة تسري في كيانها رغم دفء الجو، فأجابته قائلة: «أرجوك... لا تتصرف هكذا، يا بلايد...»

ولكنه قطع عليها كلامها بأن شرع بالسير وقد تصلب جسده وهو يقول: «هيا بنا، فلنتحرك على الدوام. إنني بهذا اتجنب أن أعرّض نفسي للقيام بعمل قد أندم عليه فيما بعد.»

فهتفت به: «انتظر يا بلايد. أرجوك.» ذلك أنها لم تعد تستطيع احتمال بروده وتهديده الخفي. إنه ليس بلايد الذي عرفت. كان عليها أن تقول شيئاً، أي شيء يهدىء من غضبه فعادت تقول: «إنني آسفة...»

ولكن صوتها همد عندما أصبحت بجانبه ورأت وجهه المظلم. وفجأة، استدار نحوها بسرعة خاطفة وقد بدا على ملامحه الغضب. ما أحست معه بقلبها يقفز هلعاً، وهو يندفع قائلاً: «أتعلمين ما الذي أصابني عندما كنت أتصورك معه، يا ايمي؟ أتعلمين؟ كنت أتحرق على نار طيلة اليوم، داخل البيت وخارجه. وكل ما عندك الآن لتقوليه هو انك آسفة؟»

وأطلق ضحكة خشنة وهو يتابع: «ولكن تلك التصورات التي كانت تراود عقلي قد أحرقت كل مشاعري نحوك وأحالتها إلى رماد...» أشاح عنها بوجهه مرة أخرى وقد توتر جسده الكبير وتصلب وهو يتابع قائلاً: «لقد أدركت بعد مدة أنني لا أعرفك، يا ايمي. ولم أعرفك قط.»

ومرت فترة طويلة شعرت هي أثناءها بعدم القدرة على الكلام. وماذا هناك لتقوله؟ فهي ليس بإمكانها الإيضاح وتبرير عملها. فهو لديه كل الحق في أن يكرهها، ولكن آه، هل كان لذلك أن يؤلمه بهذا القدر؟ ثم انه لم يكن ذنبها... لم يكن ذنبها أبداً... وغمر كيانها الألم.

وكانا الآن يسيران على ضفة جدول ضيقة، حين تعثرت قدمها بمجموعة من الأعشاب. فمد يده يسندها لئلا تقع، ولكن يده تجمدت قبل أن تصل إليها وكأنها مصابة بالبرص.

غير أنها لم تستطع السير أو الكلام وقلبها يخفق بهذا الشكل، فقالت له بضعف: «هل أستطيع أن أجلس قليلاً؟» لو أنه كان تركها وحدها، إذن ربما كان في إمكانها أن تشعر بشيء من السكينة إذ تعلم بأنها قامت بما يجب عليها أن تقوم به. إنما الآن؟ إن الألم وتشوش الذهن يمتلكانها الآن، هذا إلى خوف هائل من أن تفضح نفسها.

وقال وهو يشير إلى صخرة ملساء إلى جانب الضفة: «اجلسي هناك إذا شئت.» وأدار ظهره إليها مرسلاً نظراته نحو الأراضي الممتدة أمامهما، ثم سألها عابساً: «إلى متى تنوين البقاء هنا؟ أعني في يوركشاير؟»

فأسرعت تجيب وقد شعرت بالسرور لعودة الهدوء إليه: «لا أدري. إن ذلك يعتمد على...»

فسألها دون أن ينظر إليها ولكن كان في صوته شيء جعلها ترتجف: «يعتمد على تقدم صحة جون؟»

فأجابت بهدوء: «لقد سبق وأخبرتك أن لا شأن لجون بكل هذا الأمر. لقد جئت إلى هنا لأنه المكان الوحيد الذي طرأ على ذهني في ذلك الحين، حيث لي فيه صديق أعرفه.»

فقال: «صديق، هذا صحيح تماماً.»

فقالت: «نعم، إنه صحيح. أقسم لك.»

فأطلق ضحكة خشنة ساخرة جعلتها تقفز من مكانها وهو يقول: «تقسمين لي؟ حسناً، إن سوابقك بالنسبة إلى القسم الذي كنت أقسمته، تلك السوابق لا تشفع لك، أليس كذلك؟»

فقالت بسرعة: «اسمع يا بلايد، إن كل هذا لا يصل بنا إلى شيء. لقد تركتك لأنني أدركت أن هناك أموراً لم تكن كما يجب، وزواجنا لم يكن ناجحاً. كنت أحاول أن أكون منصفة بالنسبة إلينا نحن الاثنين، فقد كنا مختلفين كثيراً...»

وسكتت فجأة وقد شعرت بالاشمئزاز العميق من نفسها لتفاهة ما تدلي به من حجج. أليس لديها ما تقوله أفضل من هذا؟

قال هو بنعومة خطرة: «إنني لم أترك لندن وأعمالي التي منها ما هو غاية في الأهمية، لكي استمع إلى مثل هذا الكلام التافه الغث. لقد كانت الأمور على أحسن ما يرام، وكان زواجنا ناجحاً وأنت تعرفين ذلك تماماً. وقد تركتك لمدة ثماني وأربعين ساعة لعمل هام في فرنسا لأعود إلى منزل فارغ ورسالة تبدأ بـ (عزيزي جون). ويحك يا ايمي...» وكان طبعه قد عاد مرة أخرى إلى درجة الغليان ورأته يتنفس بشدة قبل أن يتابع كلامه قائلاً: «حتى انك لم تقدمي أي تفسير لعملك هذا.»

فحدقت فيه بعجز، فتحت فمها ثم عادت فأغلقته بينما أفكارها تتسارع. إنها لا تستطيع اخباره بالحقيقة، كما أن عقلها يرفض أن يأتي بكذبة تقنعه. ذلك أن ما قاله كان صحيحاً، فقد كانا في منتهى السعادة.

كانت أشعة الشمس قد أحالت لون شعره البني إلى برونزي يشبه لون لبدة الأسد الكاسر. وارتجفت إذ طرأ على مخيلتها هذا التشبيه. ولم يكن حولهما بشر لمسافة أميال... هل من الممكن أن يؤذيها؟ وحدقت في تينك العينين اللتين تشتعل فيهما نار ساكنة. إنها لا تعرفه... لا تعرف هذا الرجل الغريب الذي له وجه بلايد.

«تحدثي يا ايمي، قولي شيئاً.» وكان صوته وهو يقول ذلك، متعباً للأعصاب في ذلك الجوّ الدافىء المفعم بالشذا. كان مناقضاً لما يحدق بهما من سكون وهدوء، بينما كان هو يتابع قائلاً: «ولا تجلسي صامتة هكذا لتحملقي في وجهي بهاتين العينين الكبيرتين الزرقاوين.»

فأجابت ببطء وهي تقف على ساقين واهنتين: «مهما قلت الآن، فلن يغيّر من الأمر شيئاً. إنني أريد انهاء زواجنا يا بلايد. أريد الطلاق وهذا هو المهم. كذلك أنت أصبحت تريده الآن، كما أخبرتني بنفسك. إنك لم تعد تحبني.»

فحدّق فيها فترة طويلة. كان ثمة شيء يتفاعل خلف ذلك القناع الذي يغلف ملامحه، شيء لم تستطع أن تقرأه. ثم ما لبث أن أومأ برأسه ببطء وهو يقول: «نعم، إنني أعلم ما قلته لك.» وتنهد بعمق ثم عاد يقول: «ولكن من الصعب أن أصدق ما حدث لنا، وما الذي فعلته بنا. لقد كنا نملك كل شيء، الحب، الضحك، التوافق في الأذواق، ولكن لسبب ما، لم يكن ذلك كافياً لك، أليس كذلك؟ أم لعل السبب هو أنك سطحية غير قادرة على الالتزام بارتباط دائم؟ لقد وضعت ذلك أيضاً في حسباني. لقد قلت لنفسي إنك لم تعودي تستحقين دقيقة واحدة من حياتي.»

فسألته بألم: «ولماذا إذن، ما زلت هنا؟»

أجاب بازدراء: «إنني في الحقيقة لا أعرف.» وعندما حاولت أن تخلص عينيها من جاذبية نظراته، فتبعدهما عن عينيه، لم تستطع ذلك. وعاد يقول: «ربما الأمر هو كما قلت أنت، أريد أن أجعلك تشعرين بالضيق في هذه الواحة الصغيرة التي كونتها لنفسك.» وكانت لهجته، وهو يراقب تأثير كلماته على وجهها، قاسية ساخرة. كانت كلمات

أرادها جارحة في الصميم، وهو يتابع قائلاً: «أيمكنك أن تعطيني سبباً يجعلني أمتنع عن عدم جعلك تتألمين؟»

فرفعت رأسها بكبرياء وهي تجيبه قائلة: «كلا، ليس ثمة سبب.» وردّت شعرها إلى الخلف غير واعية إلى صورتها الرائعة وهي تقف بقوامها الأهيف وعينيها الواسعتين في ذلك الوجه الشاحب، بينما شعرها يتناثر على كتفيها كشلال من الذهب.

كانت بحاجة إلى شيء يحوّل انتباهه عنها، وتخرجه عن بروده وتمالكه لنفسه، ذلك أنه يصبح، وهو هادىء، في منتهى الخطورة. فقالت: «المسألة هي أنك لا تتصور أن تتركك امرأة، أليس كذلك؟ أنت بلايد فوربس الذي لا يهزم.»
كانت تتعمد هذه القسوة، ولكنه كان سلاحها الوحيد للدفاع، فإذا لم تستعمله، فإنه لا بد أن يعيدها، إنها تحس بذلك، ومن ثم لن تستطيع بعد ذلك شيئاً. وتابعت تقول: «فأنت لا تستطيع أن تتقبل فكرة أنني لم أعد أريدك.»

فأجاب بغطرسة رائعة جعلتها تحملق فيه بذهول: «كلا، لا أستطيع ذلك.»

كانت تتوقع منه أن يفقد أعصابه، أو أن ينهال عليها بكلمات قاسية. ولكن النظرة المفكرة التي ارتسمت في عينيه كانت مخيفة أكثر مما توقعت وكان يتابع قائلاً: «خصوصاً بعد أن رأيت جون، لقد كنت ألبي كل طلباتك، يا ايمي. وهنالك ما هو أكثر من ذلك...»

فقاطعته قائلة: «كلا.» كان عليها أن تكذب من قبل، وهي تتابع قائلة: «كلا، إنك لم تعد تعجبني...» وقطعت كلامها إذ صرخت بذعر عندما اندفع نحوها فجأة ليقول وهو ينظر إليها ببرود: «لم أعد أعجبك؟ إن بإمكاني، في خلال خمس دقائق، أن أثبت لك

العكس.» وجعلتها غطرسته الوقحة هذه تتمنى لو تضربه رغم أنها كانت تعترف في أعماقها، بأنه على حق. لقد كانت حين زواجهما، في منتهى البراءة والسذاجة.

وقالت ببطء وهي تتراجع إلى الخلف وقد شحب وجهها: «إنك تتحدث عن الرغبة الدنيئة، عن المشاركة الوضيعة، عن العلاقة العابرة، سمّها كما تريد فهي واحد.»

فقال ثائراً: «إنني أسميها الحب. وأظن أنك كنت أنت أيضاً تسمينها كذلك.»

فأجابت بمزيد من الهدوء، بينما قلبها يتحطم وهي ترغم نفسها على الاستمرار: «لقد كنت أول رجل عرفته. ولم أكن أعرف غيرك لأقارنك به. ولكنني أدرك الآن...» لقد كان عليها أن تنهي ما بدأته. كان على ذلك أن ينتهي، الآن. وإلا فإنها لن تستطيع أن تواجه مثل هذا الموقف مرة أخرى.

ولكنه قاطعها قائلاً: «لا أريد أن أسمع هذا الكلام. إنني لا أدري ما الذي كان يحدث، ولكن ليس بإمكان أحد أن يغير كل هذا. إنك تضرين بنفسك وبمصلحتك، يا ايمي. إنني لا أصدق ما أسمع.»

فقالت بصوت جعله الخوف والذعر خشناً: «إن هذا راجع إليك.»

فقال: «تماماً.» لم تره قط من قبل، بمثل هذه الوسامة وهو يقف أمامها في أشعة الشمس الدافئة، وكان يتابع قائلاً: «لقد كنت أنا، كما تقولين، أول رجل تعرفينه.» وعقد ذراعيه فوق صدره وهو يحدق في عينيها متابعاً قوله: «ولكن كما تعلمين، كانت لي ارتباطات عديدة قبلك، ما جعل في امكاني تمييز حقيقة المرأة. لقد أدركت أنك أحببتني، بل كنت مجنونة بي حباً. ولا شيء مما تقولينه يمكن أن يقنعني

بالعكس. إنني أعترف عندما ظننت أن جون...» وسكت برهة عاد بعدها يقول: «إنما هذه المرة فقط في حياتي، كان تفكيري غير صائب، وهذا كان نتيجة فعلتك بي، يا ايمي.» وكانت سخريته من نفسه شديدة العنف بحيث أخذت تحدق في وجهه وقد انحبست أنفاسها. إن حركة واحدة خاطئة منها، كفيلة بأن تدفعها إلى العودة حيث لن تستطيع بعدها أن تتحرر منه أبداً. فهي عند ذاك، ستدمر نفسها وتدمره معها.

وقال لها بصوت بالغ الرقة: «قولي إنك لا تحبينني. حدقي في عيني واخبريني انك لا تحبينني.»

فقالت وهي تشيح بوجهها: «بلايد...»

ولكنه تقدم منها وقال: «أخبريني فأخرج من حياتك على الفور ولا ترينني بعد ذلك أبداً. إنه عهد مني بذلك.»

كان وجهه قريباً من منها إلى حد استطاعت معه أن تلحظ خيوطاً فضية في شعره الأسود الكثيف لم ترها من قبل، ما جعلها تفكر في تفاهة الحياة وسرعة زوالها. لقد كان بلايد في السادسة والثلاثين من عمره، قوياً مليئاً بالحيوية والنشاط وفي عنفوان الشباب، ويتطلع إلى تكوين أسرة مع زوجة فتية صحيحة الجسم. وهذا لا يمكن أن يكون معها هي. وعضت شفتها بقوة. إنها بمسلكها هذا، تمنحه فرصة ثانية لذلك، لأنه لن يحصل على شيء من هذا ما دامت هي معه.

وعاد يقول: «ايمي.» وذلك دون أن يحرك عضلة واحدة، حتى الهواء حولهما كان يبدو مثقلاً بالانتظار.

«بلايد، إنني لا...» وتهدج صوتها إزاء النظرة الفولاذية التي بدت في عينيه، ولكنها ازدرت ريقها وهي تقبض يديها بتوتر بالغ. وكان جسدها يرتجف. أتراه لم يلحظ هذا؟ وخفضت

نظراتها وهي تلوك كلماتها إذ تقول: «إنني لا أحبك.»

فقال بهدوء: «لم تقوليها كما ينبغي. لقد قلت لك ان تحدقي في عينيّ.»

ولم يكن لديها فكرة عما يفعله بها، وتملكها اليأس. لماذا يحدث كل هذا لهما؟ لماذا؟ لم يعد بإمكانها احتمال ذلك. ورفعت عينيها اللتين غشاهما الدمع فلم تعد ترى شيئاً، ثم قالت: «إنني لا أحبك.»

وساد سكون عميق، ثم ومن خلال نبضات قلبها المرتفعة، سمعته يقول ببطء: «هل هذا أحسن ما يمكنك قوله؟»

ولم يكن هذا هو الجواب الذي كانت تتوقع. وما أن جلا بصرها حتى رأت وجهه وقد أصبح خالياً من أيّ تعبير وكذلك عيناه. وعندما وقفت أمامه وهي تترنح قليلاً شعرت للحظة بأنه ينظر في أعماقها، فقالت: «إنني لا أفهم.»

فأجاب: «نحن الاثنان لا نفهم شيئاً.»

قالت وهي تخفض بصرها: «ها قد أخبرتك. وأنت وعدت بأن ترحل إذا أنا أخبرتك. وها قد فعلت.»

فقال: «إنك لم تقنعيني.»

فرفعت رأسها بحدة تحدق في وجهه الوسيم الذي كان يسوده البرود. ثم قالت بحرارة: «لم يكن بيننا هذا الشرط. وسواء صدقتني أم لا، فقد قلت إنك سترحل...»

فقاطعها دون أيّ بادرة ندم على ملامحه الهادئة المطمئنة: «لقد كذبت عليك.»

فقالت: «هذا ليس عدلاً، يا بلايد...»

فقاطعها قائلاً: «وكذلك كلامك يا حبيبتي. والآن، يبدو أننا لن نصل إلى نتيجة هذا النهار، فأنا أقترح أن نقوم

بجولة على الأقدام نستمتع بهذه المناظر الجميلة، إلا إذا كنت تفضلين شيئاً آخر.» بدا وكأنه يستفزها بلهجته البطيئة وحاجبه المرفوع، وحدث هذا فعلاً إذ قالت بحدة: «فلتذهب إلى...»

ففارقه انشراحه للتوّ ليقاطعها بصوت بارد كالثلج: «لا تخبريني إلى أين أذهب، يا ايمي. انك تسلكين مسلكاً غاية في الدقة، يا فتاتي، فلا تنسي هذا. إن مشاعري تدفعني إلى أن أعيدك إلي الآن في هذه اللحظة على كل حال، لا تبدو هذه فكرة صائبة، حالياً وإن كانت ستخفف من شعوري بالإحباط وخيبة الأمل فيك...»

فأجابت: «إذا أنت حاولت ذلك، فلن أصفح عنك أبداً...»

وقاطعها بقوله: «ولكنني بالنسبة إلى وضعنا هذا، ليس لديّ ما أخسره، أليس كذلك يا ايمي؟»

ولأنه كان يتوقع ردة الفعل التي بدرت منها، أمسك بيدها التي كانت رفعتها لكي تصفعه بها، وقد بدت السخرية على ملامحه وهو يقول: «لا أريدها مرة أخرى، ثم راعي حسن السلوك وإلا اضطررت لإعطائك درساً آخر من الطاعة.»

فسألته بغضب وألم: «هل هذا كان قصدك؟ درس في الطاعة؟»

فابتسم ببطء، وهو يجيب قائلاً: «ليس تماماً. جزئياً فقط.»

فسألته بتوتر وهي تقف أمامه بكبرياء: «ولماذا توقفت إذن؟»

فأجاب بلطف: «لأنني لا أريد طاعة كاملة وأنت تدركين ذلك جيداً. إنني لا أعرف ما تقصدينه ولكن الأفضل أن تحفظي الدرس جيداً الآن. إنني لا أريد أن أكون مغفلاً، يا ايمي. فإنني أريد عطاءك أن يكون بكامل رغبتك، وأن يكون

حبك لي مماثلاً لحبي أنا. وأيّ شيء أقل، هو بالنسبة إليّ في الدرجة الثانية من الأهمية وهذا ما لم أقبل به في حياتي قط.»

وأحست بكلماته هذه كطعنة خنجر في فؤادها. في الدرجة الثانية؟ نعم، إنها كذلك الآن. وآه لو أنه يعلم... ودار رأسها وهي تتصور تلك الأزهار التي كانت تستبدل يومياً. وقالت وهي ترد خصلة من شعرها إلى الخلف: «كلا، إنك لم تقبل به قط. ولماذا عليك أن تقبل به؟ بل لماذا على أيّ شخص آخر أن يقبل بذلك؟»

فقال بصوت بلغ من العنف أن جعلها تقفز من مكانها: «ايمي؟ ما الذي تفكرين فيه؟ جون؟ هل هو الذي جعل وجهك يبدو بهذا الشكل؟

فأجابت وهي ترغم نفسها على أن تبدو جامدة الملامح فلا تفضحها مشاعرها: «إنني أريد أن أبدأ حياة جديدة، يا بلايد، وأريد منك أن تفعل نفس الشيء، وهذا هو كل ما في الأمر.»

فقال بجفاء: «أريد، أريد. ما أكثر ما ترددين هذه الكلمة، يا ايمي. حسناً، ليس في نيتي أن أجعل هذا الأمر سهلاً عليك، يا حلوتي، إن بإمكاني أن أكون رجلاً نظيفاً أو قذراً، ويمكنني التفوق في الأمرين.»

فقالت بهدوء بينما قلبها يخفق: «لا أشك في ذلك. ولكنني سأحصل على الطلاق في كلا الحالين.»

أجاب: «ستحصلين على ذلك.» وبدت ومضة في عينيه أثارت أعصابها، ولكنها تقبلت كلماته بشكلها الظاهر وأومأت برأسها ببطء وهي تقول: «هذا كل ما أريد.»

فقال: «إنها هذه الكلمات مرة أخرى. يا لك من أنثى

صغيرة قوية العزم.» وفجأة، ساورها شعور عنيف وغير مريح في أنه مع كل هذا الكلام والتهكم، كان ذكاؤه الثاقب يعمل في مجال آخر مختلف تماماً، جملة وتفصيلاً. هل كانت تستغفله حقاً؟ ونظرت بإمعان في ذلك الوجه الخشن، ولكنها لم تستطع أن تقرأ فيه شيئاً، ما جعلها غير متأكدة من شيء...

وما لبثت أن رفعت رأسها بكبرياء وهي تقول: «أيمكننا العودة الآن؟»

فابتسم ساخراً وهو يقول: «طبعاً، ليس من الشهامة أن أرفض طلباً لسيدة جميلة، خصوصاً إذا كانت هذه السيدة زوجتي.» وبدت في عينيه نظرة قاتلة وهو يتابع قائلاً: «أليس لديك شيء آخر تقولينه لي؟»

فأجابت وهي تقابل نظرته تلك بشجاعة: «كلا.»

فقال: «الخيار إذن لك.» وابتسم ببطء ولكن التواء فمه جمد الدم في عروقها، ثم تابع قائلاً: «إنك تريديننا أن نكون حبيبين وليس صديقين، أليس كذلك؟»

فأجابت بغضب: «كلا، إننا لن نعود حبيبين مرة اخرى، انك تعلم ذلك. لم يعد بيننا شيء، يا بلايد...»

فقال: «إنني بعكسك، لا أرجع عن قولي، فقد سبق وأخبرتك كيف سيكون الأمر، إنك ستشتاقين إلي بنفس القدر الذي اشتاق به اليك. أتشكين في ذلك؟»

فأجابت: «أريد أن أعود إلى السيارة.»

فقال: «كما تشائين.»

كان يبدو، وهو يسير بجانبها، وكأنه لا يشعر بوجودها. عندما فتح لها السيارة لتصعد، ألقت نظرة على وجهه،

ولكنه بدا نائياً منطوياً على نفسه كوجه رجل غريب في بلاد غريبة، مما أرسل الوحشة في كل خلية من جسدها، وتلك التعاسة التي تملكتها منذ تلك الزيارة المدمرة لساندرا، قد اشتدت منذ عادت فرأته مرة اخرى.

ولكنها كانت محظوظة، فما زالت أمامها سنوات قبل ان يطل المرض برأسه، سنوات طويلة تستطيع فيها ان تسافر وتتفرج على العالم الجميل، أن تعيش. إنها ليست كأولئك الأطفال الذين يولدون معاقين والذين لم يكن لهم حظ بالعيش مثلها؟ إنها محظوظة حقاً.

كانت منزوية في مقعدها الفخم في تلك السيارة وهي تحاول ان تقنع نفسها بكل هذا... وأرادت ان تضغط بأصابعها على جبهتها التي أخذت تنبض بقوة، ولكنها منعت نفسها من ذلك. ان الكثيرين يفاجئهم المرض دون انذار، بينما هي أعطيت وقتاً، وقتاً ثميناً جداً. وألقت نظرة على ذلك الجسم المتصلب بجانبها، إنها على استعداد للتخلي، بكل سرور، عن كل ثانية من ذلك الوقت الثمين، فقط لكي تمضي معه يوماً واحداً زوجة له دون علم منها بذلك الشيء الذي ينتظرها.

ما أغرب الحياة، وعضت شفتها وهي تفكر بذلك. لقد واجهت، خلال اشهر قليلة، أمرين على طرفي نقيض، الأول كراهية وعنف ساندرا والثاني حب بلايد. وهذا الأخير قد اصبح الآن من الماضي.

وقال فجأة: «سيصيبك تقلص في العضلات.»

فهتفت بذعر: «ماذا؟» ونظرت اليه، فرأته ينظر إليها لحظة، قبل أن يعود فيقول: «إن جسدك في غاية التوتر،

استرخي.» وكانت لهجته اشبه بلهجة المذيع الذي يذيع النشرة الجوية.

ولم يتكلم مرة اخرى وهما في طريقهما الى البيت، مجتازين التلال والوديان المكسوة بالغابات والأكواخ المنعزلة التي تقوم على جانبي الطريق. هذا والصمت ما يزال مسيطراً يلف السيارة بردائه، وعندما اقتربا من نزل السيدة كوكس الصغير، امتلأ الجو بتغاريد طيور المساء الشجية المؤثرة ما شعرت ايمي معها بغصة في حلقها.

وعندما مد يده يفتح لها باب السيارة لتنزل، قالت له وهي تنظر إلى وجهه: «شكراً.» ولكن وجهه كان جامد الملامح، ولم تشر الايماءة البسيطة التي رد بها عليها، الى ما يشعر به على الاطلاق، وبعد لحظة، كان قد رحل.

ومضت هي تتابعه بنظراتها الى ان توارى في المنعطف، فوقفت طويلاً مستندة بظهرها الى جذع شجرة الليلك القديمة. مازال هذا الذي حدث لهما يبدو مستحيلاً لا يمكن تصديقه، انهما يعيشان منفصلين يسودهما الجفاء دون أمل في صلح.

كان كل شيء في حياتهما جميلاً، مستقيماً حافلاً بالتفاصيل الرائعة التي تجعل حياتهما مكتملة. لقد تفهم بلايد كل مشاعر الخوف وعدم الطمأنينة التي كانت تكتنفها، كما أن طفولته هو كانت مزيجاً من السعادة والالتواء.

كانت والدته الزوجة الثانية لأبيه الذي كانت مسؤوليته تجاه اولاده الثلاثة من زواجه السابق ما زالت تشكل هاجساً ألقى بظله عليهم جميعاً.

لقد قال لها بلايد مرة بهدوء وقد شردت عيناه في الماضي: «لم يحدث قط أن امتلكت ربع دولار، ولكن اخوتي غير الاشقاء كانوا ينالون ما يطلبونه من أبي على الفور. وقد نشأنا، أنا وشقيقي تود، معتبرين هذا الأمر وضعاً طبيعياً، وكانت أمي تشتغل ليلاً ونهاراً لم تكن تكفي قط. كانت، وأبي، دائمي الشجار ولكن أمي لم تستطع مطلقاً أن تحمل نفسها على تركه كما فعلت زوجته الأولى. ثم مات أخي تود.» وبدت في ذلك الحين، المرارة على ملامحه ليتابع فيقول: «مات بالتهاب السحايا، أما أبي فلم يكد يلاحظ ذلك. ومنذ تلك اللحظة تملك والدتي شعور بالاستسلام. ولأول مرة، قبلت فكرة أنه مازال يحب روزا زوجته الأولى، وأننا نحن جميعاً لسنا سوى أشخاص ثانويين بالمقارنة مع روزا وأولادها.»

وكانت عينا بلايد مفعمتين بالألم وهو يتكلم.

وتابع يقول: «وعندما كنت في الثامنة عشرة، قتل في حادث منجم وبقيت سنوات شاعراً بالذنب لأنني لم أشعر إزاء موته، بسوى الارتياح لأن المشاجرات ستتوقف وستعرف أمي السلام. وقد ماتت هي بعده بست سنوات حالما بدأت أكوّن نفسي بشكل جيد، أصبحت استطيع أن أجعلها تعيش الحياة التي تستحقها. ولكنني تركت كل هذه الأفكار الآن.»

والآن؟ وتحركت بضيق، عاجلاً أم آجلاً، وربما عاجلاً سيخرج هو من حياتها كلياً، وسيعيش ويتنفس من دونها. واعتصر الألم قلبها، وشهقت برغمها. سيعيشان في نفس الوقت على هذا الكوكب الصغير ولكنها لن تعرف متى

سيكون يومه سيئاً، ومتى سيثيره شيء ما، ومتى سيكون حزيناً، لأنها لن تكون موجودة لتخفف عنه عندما يشعر بالتوتر، لتضحك منه وتغيظه لدى اي تصرف شاذ يصدر عنه وهزت رأسها شاعرة بالعجز والدموع تغسل وجهها. إنها تحبه ولشد ما تحبه، فهي لا تستطيع تحمل هذا الألم... ولكن عليها أن تتحمل.

لن يتحقق أي من أحلامهما بعد الآن، لقد كانت بداية حياته سيئة جداً، وقد كافح كثيراً لكي يحصل على النجاح، وهي الآن ستعيقه عن أن يعيش الحياة التي يريدها، اذ تملأه شعور بالذنب إزاء كل لحظة يستمتع فيها من دونها، وإذا ما تعرف إلى امرأة أخرى...

وجلست فجأة على العشب تحيط ركبتيها بذراعيها. قبل ذلك الوقت ستمضي سنوات من الانتظار والترقب... هذا الترقب الذي هو اشبه بقنبلة موقوتة والذي يفسد كل لحظة بهيجة تمر بها. لن يكون هناك أطفال، لن يكون بلايد الصغير الذي سيحمل اسم أبيه، وقالت بصوت خافت مرتجف: «إنني على صواب.» ورفعت رأسها عند ذاك ليبدو وجهها المبلل بالدموع لامعاً شاحباً في الضوء الباهت. وعاد صوتها يقول: «إنني على صواب.» وهذه المرة كان صوتها خشناً ثابتاً، وكانت الكآبة التي ارتسمت على ملامحها، صدى لتلك الكلمات الثلاث التي كانت تمثل لها حياة مليئة بالوحدة والوحشة.

الفصل الخامس

في الصباح التالي، دهشت إيمي حين وجدت أنها كانت قد استسلمت للنوم، في الليلة السابقة، حالما وضعت رأسها على الوسادة. كانت قد توقعت أن تمضي الساعات في أرق تتقلب على فراشها ولكن الإرهاق الذهني البالغ أرسلها إلى عالم من الأحلام استيقظت منه وهي تشعر بتحسن كبير.

وأخذت تراقب تراقص أشعة الشمس على الجدار قبالتها وهي تفكر في أنها تشعر هذا النهار بنوع من الاقتناع والإطمئنان إلى أنها قامت بالعمل الصواب، ما خفف الألم في نفسها. ان عليها أن تكون إيجابية، عليها أن تضع الماضي خلفها وتنسى المستقبل وتعيش حاضرها فقط. وهذا بإمكانها وستقوم به.

ووجدت في هذه القناعة ما يعزيها لمدة خمس دقائق فقط، وهي المدة التي اقتضتها للنهوض وارتداء معطفها المنزلي الحريري، والمرور على شعرها بالفرشاة بسرعة، ثم النزول إلى الطابق الأسفل حيث تحضر لنفسها خبزاً محمصاً وكوباً من الشاي في المطبخ.

«صباح الخير يا ايمي.» ولم يذهلها ذلك الصوت الاميركي العميق الذي جعل خفقات قلبها ترتفع، بقدر ما أذهلها منظر بلايد الذي كان يرتدي بنطال جينز علقت به الحشائش، وحذاء خفيف، وقد جلس يتناول فنجاناً من القهوة مع السيدة كوكس وأخذ ينظر إليها بعينين ضيقتين وهي تقف عند عتبة الباب، ويتابع قائلاً بصوت في منتهى الرقة: «هل نمت جيداً؟»

أجابت: «ماذا؟» وسكتت فجأة ثم عادت تقول: «أعني...»

فأسرعت السيدة كوكس تقول: «سأخرج أنا الآن لأنشر الغسيل. وحيث انك اقتلعت كل الطحالب والأعشاب من الممر، فاجلسا الآن وتناولا القهوة معاً بدلاً من العودة إلى تلك البقعة التي بقيت في نهاية الحديقة.» وهرعت خارجة من باب المطبخ الخلفي قبل أن تتمكن إيمي من أن تستوقفها، وأغلق بلايد الباب خلفها بعناية، ثم اقترب من إيمي برشاقة طبيعية.

وحاولت بكل ما أوتيت من إرادة، أن تحول بصرها عنه، فلم تستطع. كان مايزال كما تعهده روعة وجاذبية بل وأكثر. وأدركت أنه كان يستمتع بما بدا عليها من احراج. وقال ساخراً: «لقد سألتك ما إذا كنت نمت جيداً.»

فأجابت: «نعم، شكراً.» ومشت نحو إبريق القهوة تضعه على النار بيدين مرتجفتين، محاذرة من أي احتكاك قد يحدث بينهما في هذا المطبخ الصغير.

فقال وهو يقف خلفها: «هذا حسن جداً. ها قد وضعت عطرك الصباحي.» فتجمدت في مكانها. ما أجمل ما تشعر به... ما اجمل ذلك. وكان هو يتنهد قائلاً: «إنه مزيج من الصابون المعطر والشامبو وشيء آخر... شيء آخر يعبر عن شخصيتك. إنه...»

فقاطعته وهي تحاول التملّص: «إن روائح الحديقة تفوح منك. فهل لك أن تبتعد عني من فضلك؟»

فقال متجاهلاً طلبها هذا: «عندما جئت في الصباح، لم تكن روائح الحديقة تفوح مني، فقد كنت منتعشاً من أثر الاستحمام ووضع ماء الكولونيا بعد الحلاقة، تلك التي كنت تفضلينها. أتتذكرين؟»

أتراها تتذكر حقاً؟ لقد كانت حواسها تضطرب وهي

تتشمم هذا العطر الذي اعتاد أن يدير رأسها والذي صنع خصيصاً لأجله. عطر هو مزيج من رائحة الليمون والمسك وشيء آخر أصبح هذا المزيج معه غاية في الروعة.

وكان هو يتابع قائلاً: «إنني لم أنم جيداً. وفي الواقع أنني، بعد عدة مرات وقفت فيها تحت الدوش في الساعة الثانية صباحاً، وفي الرابعة، والسادسة، فكرت في أن افضل ما يمكنني عمله للتخلص من ذلك الارهاق من جسدي هو العمل في حديقة السيدة كوكس. وقد أفادني هذا فعلاً، إلى أن رأيتك تدخلين المطبخ.»

فردت عليه بعنف وغضب: «اتركني يا بلايد، إنني اعني ما اقول... لقد سبق واخبرتك...»

فقاطعها بقوله: «اخبرتني بأنك لا تحبينني. نعم، أعلم هذا.»

وألقى عليها نظرة مليئة بالمرارة قبل أن يخرج من المطبخ بغضب متجهاً نحو الحديقة، عالي الرأس.

وأخذت تراقبه وهو يتبادل بعض التعليقات مع السيدة كوكس التي كانت ماتزال تنشر غسيلها في أشعة الشمس، ثم يتناول الفاس ويبدأ العمل في أحد احواض الزهور. وبينما كانت تتأمله، ساورها شعور مفاجيء كاد يبلغ بها حد النوبة العصبية، وهو أن لا احد في العالم يمكن أن يصدق أن هذا الرجل الذي يعمل في حديقة صاحبة نزل صغير في يوركشاير، هو بلايد فوربس الملياردير الذي كل المؤسسات العالمية رهن طلبه وإشارته. ولم تعرف ما إذا كان عليها أن تضحك لهذا أم تبكي. ومالبثت أن استدارت بحركة آلية، ومضت تصنع لنفسها الخبز المحمص والشاي ثم تهرب إلى غرفتها قبل عودة السيدة كوكس.

أخذت تسير في أرض غرفتها وتحدث نفسها، دون وعي

منها، قائلة: انني أكرهه. إنه يفعل كل هذا لغاية في نفسه. ووقفت لحظة وهي تضغط على صدغيها بأناملها متسائلة عما يجعله يقوم بكل هذا، ولماذا لا يدعها وشأنها؟ وجاءها الجواب من نفسها على الفور وهو لأنه لم يسبق لأحد من قبل أن أفلت من يده، وساورها الشك في ما إذا كان قد سبق وأراد شخص ما أن يحاول ذلك. فهي كانت تعرف جيداً تأثيره على الناس. وتمتمت بضيق، يا له من شخصية مدمّرة. لقد كان اخبرها أنه لم يعد يريدها أن تعود إليه، وأنه لم يعد يحبها... ولكن... وحملقت أمامها دون أن ترى شيئاً. لكنه يريد أن يتأكد فقط من عودتها اليه إذا هو رغب بذلك. هل هذا فقط؟ وأخذت تمر بيدها على عينيها. كلا، انها لا تصدق ذلك، ولكنها فقط، لم تعد متأكدة من شيء، إنه الآن مختلف جداً عما كان، ولكن لا بد أنه يراها كذلك هي أيضاً.

الشيء الوحيد الذي كانت متأكدة منه، هو ضرورة تجنب وجودها معه بمفردهما، مهما كلفها الأمر. وقفت امام المرآة تنظر إلى ما تعكسه لها من جمال رقيق والذي كان أول ما جذب بلايد إليها. طيلة حياتها، كان جمالها هذا مجلبة لتعاستها، بدءاً من غيرة اختها وبالتالي كراهيتها لها، ثم بعد ذلك، نفور عمتها وزوجها الصارمين المتزمتين منها. والآن هو السبب في استمرار انجذاب بلايد إليها وبالتالي تعرضها هي للضعف أمامه لوجوده بقربها على الدوام.

ولكن ألم يكن يحبها لنفسها، وليس لجمالها فقط؟ وتحولت مبتعدة عن المرآة وقد ملأ نفسها اليأس.

وعندما أكملت استعدادها للذهاب إلى عملها، كانت قد استعادت هدوءها ورباطة جأشها، وكانت قد عقدت شعرها

إلى الخلف، وارتدت تنورة واسعة يعلوها قميص فضفاض ما أخفى معالم جسمها تماماً. ولم تضع على وجهها أي لمسة زينة. وهكذا بدت، وهي تتأمل نفسها في المرآة، عادية تماماً ولا يمكن أن ينظر إليها أحد مرتين.

وتنهدت بعمق وهي تترك غرفتها، وقد حوّلت انتباهها إلى حيث يعمل بلايد في الحديقة الأمامية الصغيرة. وكان قد عمل معظم الصباح في الحديقة الخلفية. وأثناء الغداء سمعت صوته يتكلم ضاحكاً مع السيدة كوكس. ومع أنها تعمدت البقاء في غرفتها، ألا أنها وجدت أن لا مفر من الالتقاء به حيث كان انتقل من الحديقة الخلفية إلى الحديقة الأمامية الآن. اتراه تعمد ذلك؟

ولما خرجت من الباب الامامي، مرّت به بسرعة وهي تلقي عليه التحية، قال لها: «انني ذاهب الآن إلى المدينة لإحضار بعض البذور للحديقة، ويبدو أنك تأخرت. فهل تريدين مني أن أوصلك بطريقي؟»

فأجابت وهي تراه يحضر قميصه من حيث كان علقه على غصن شجرة: «إنني لم أتأخر، وفي الواقع سأقابل جون في آخر الطريق. فهو يوصلني أحياناً، وهو في طريقه إلى عمله.» وعندما رفع حاجبه ساخراً، اضافت بلهجة ضعيفة: «إنه رجل شهم.»

فقال وهو يرتدي قميصه وعيناه لا تتحولان عنها: «آه، بالتأكيد. إنه شهم جداً.»

وحدقت فيه طويلاً دون أن تجيب، ولكن تلك العينين السوداوين الهازلتين في ذلك الوجه الساخر لم يبد عليهما أي اضطراب او تردد إزاء الإحباط الذي بدا عليها، وهي تقول ببطء بينما تبتعد

عنه: «انني لا أحب هذه الناحية منك. انها شيء رخيص و...»

«شيء رخيص؟» لقد اختفى الهزل من عينيه ليحتل مكانه غضب عنيف جعلها تدرك أنها تجاوزت الحد. وكان هو يتابع قائلاً: «اتتحدثين إليّ عن الرخص؟ انك بحاجة إلى درس في السلوك المهذب، يا فتاة، وهذا وقت...»

ولكن صوت السيدة كوكس ينادي إيمي من داخل المنزل، جعل جسده يتصلب على الفور، وهتف مشمئزاً: «وما الذي يجعلني أهتم إلى هذا الحد؟» وتابع ساخراً: «إذهبي وحافظي على موعدك.»

وهنا ظهرت السيدة كوكس على عتبة الباب فلما رأتها هتفت: «إيمي، إنني مسرورة إذ رأيتك قبل أن تخرجي. لقد اتصل آرثر صاحب المطعم ليقول لك إنه مضطر إلى الخروج بنفسه لإحضار بعض اللحم، وإنه يرجو منك أن لا تنسي إحضار مفتاح باب المطعم لكي يمكنك الدخول. هل هو معك؟»

أجابت إيمي بابتسامة مغتصبة: «نعم، يا سيدة كوكس، شكراً لك وإلى اللقاء.»

واستدارت لتخرج من البوابة قبل أن تسمع كلمة أخرى، وقد رفعت رأسها بكبرياء، مع أن الدموع كانت تعيقها عن أن ترى طريقها... ذلك أنه كان ينظر إليها وكأنه كان يكرهها... يكرهها تماماً. ولكن، أليس هذا ما كانت تريده؟ وكان هذا سؤ الأمراً وجهته إلى نفسها، ليجيبها صوت من أعماقها، بألم وسرعة، كلا. إنها لم ترد ذلك قط.

وهتفت بصوت عالٍ في ذلك الطريق الخالي الذي تظلله على جانبيه الأشجار القديمة الضخمة، إبقى بعيداً عني يا بلايد، إن بإمكاني إذا أنت بقيت بعيداً أن أحتمل الألم

والوحدة وكل شيء آخر. ولكنه لا يستطيع سماعها، كما أنها لم تكن متأكدة من رغبتها في أن يسمعها.

كان جون في انتظارها في مكانه المعتاد. فابتسم لها هاتفاً: «إيمي؟» ولكن ابتسامته سرعان ما تلاشت حالما رأى وجهها، فسألها قائلاً: «ماذا جرى؟»

فأخذت المنديل الذي قدمه إليها تمسح به وجهها وهي تتهالك على المقعد المهترىء بجانبه، وهي تقول: «إنه بلايد. إنه يساعد السيدة كوكس في حديقتها.»

فحدّق فيها بحيرة بالغة وهو يسألها قائلاً: «يفعل ماذا؟ لا يمكنني تصديق ذلك.»

فقالت بهدوء: «ولا أنا صدقت ذلك في بداية الأمر. إنه يبدو عدائياً بشكل...»

فقاطعها جون وهو ينظر إلى الطريق أمامه غاضباً: «هل آذاك؟»

تنهدت بعمق وحاولت أن تبتسم وهي تجيبه قائلة: «كلا. لا شيء من ذلك. لا بد أنني حمقاء. إنه سيقلع عن هذا ويرحل في النهاية. لا بد له من ذلك. وإلى أن يحين ذلك، عليّ أن أتدبر أمري وأصبر.»

«هذا جنون. أتريدينني أن أتحدث معه؟»

فهزت رأسها ببطء قائلة: «كلا. إن هذا أسوأ ما يمكنك أن تقوم به. ذلك أنه يعتقد بأننا... إنك تدرك ما أعني...»

وسكتت بارتباك ثم عادت تقول: «إنني آسفة، يا جون.»

فابتسم لها وقد بان الدفء في عينيه الرقيقتين، ثم قال: «لا لزوم للأسف. فهذا إطراء كبير لي. هل سبق وفكرت بي من هذه الناحية؟»

فعادت تبتسم قائلة: «كلا، بالطبع. إننا صديقان فقط. أليس كذلك.»

فجمد في مكانه لحظة، عاد بعدها يتنهد برقة وهو يقول: «صديقان؟ هذا مؤكد. ولكنني أتمنى لو كان الأمر أكثر من ذلك. يجب أن تعرفي كنه شعوري نحوك، يا إيمي. وكيف كانت مشاعري على الدوام. عندما تقابلنا لأول مرة، كنت صغيرة السن جداً، فلم أشأ استعجال الأمور، وبالطبع كنت أنا، عند ذاك مرتبطاً مع كارول. وهكذا كان الأمر مستحيلاً. ولكن عندما تلقيت منك دعوة الزفاف...» وفي هذه اللحظة لم يكن الوجه الذي ينظر إليها شبيهاً بوجه جون. لقد تحولت ملامحه من الوداعة والرقة، ليحل مكان ذلك شيء فهمته... ولكنه لم يعجبها.

فقالت: «جون. أرجوك.»

فقال: «كلا. استمعي إليّ يا إيمي. إذا أنا لم أحدثك عن شعوري نحوك فسأندم على ذلك بقية حياتي. عندما جئت إليّ هنا، لم أستطع أن أصدق ذلك في البداية. فقد كان ذلك حلماً قد تحقق. آه يا إيمي، إنني أعرف أنك تعتبرينني مجرد صديق. إنك لم تظهري نحوي ما يجعلني أشعر بالأمل، أما الآن ها انك تركت بلايد، يا إيمي. ومهما كان سبب ذلك تبقى الحقيقة وهي أنك تركته. أتظنين أن بإمكانك أن تحاولي أن تحبيني؟ أن تهتمي بي؟» وفي نفس اللحظة سمعت ثم لمحت سيارة بلايد تجتازهما بسرعة في ذلك الطريق المترب.

وهتفت: «جون...» وتنفست بعنف فاستدار وهو ينظر من النافذة إلى عاصفة الغبار التي خلفتها سيارة بلايد الفخمة. ثم يرفع حاجبيه يسألها وقد بدا عليه ذعر مفاجىء: «هل هذا...؟»

فأومأت برأسها وقد بانت عليها التعاسة، وهي تقول: «لقد كان ذاهباً لشراء شيء من بذور الأعشاب للحديقة.» كانت تتكلم، بينما كان ذهنها في دوامة عنيفة ليس فقط من

تصريح جون وما يتضمنه، وإنما أكثر من ذلك خشيتها من أن يكون بلايد قد رآهما أثناء مروره بجانبهما وما قد يظنه... ما الذي سيظنه؟ إنه، دون شك سيظن الأسوأ. وقطع عليها جون أفكارها قائلاً: «حسناً، إنني آسف. ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئاً...»

ولكنها قاطعته بدورها بهزة من رأسها وهي تنظر إليه آملة بأن يتفهم الأمر، وتقول: «جون... إنني آسفة...» وسكتت لا تدري ما تقول. ذلك أنها لا تريد أن تخبر أحداً عن مرضها، ولكن... ونظر إليها لحظة طويلة قبل أن يومىء برأسه ببطء وهو يقول: «أليس هناك أمل؟ أظنني كنت أعرف ذلك، ولكن كان عليّ أن أقوله لك. هل تصفحين عني؟»

«لا تكن أحمق، فليس هناك ما يستدعي الصفح. كل ما في الأمر أنني أحب بلايد يا جون. لقد أحببته منذ اللحظة التي رأيته فيها، وسأبقى على حبه ما عشت. إنني أقدّرك كصديق، كأفضل صديق، ولو كانت الأمور مختلفة... ولكنها ليست كذلك.» ولم تشأ أن تقول أكثر من هذا، ولكن إذا كان جون سيظن أن الذنب في تركها بلايد هو ذنب بلايد، فإنها ملزمة بتصحيح ظنه هذا فقالت: «لم يكن تركي له بسبب خطأ منه، ولكنني لا أستطيع أن أقول أكثر من أن عليك أن تثق بما أقول. إنه لم يخطىء معي بشيء، بل بالعكس.»

فسألها قائلاً: «فلماذا إذن...»

فهزت رأسها ببطء وقد شحب وجهها وهي تقول: «أرجوك يا جون. إنني لا أستطيع أن أوضح الأمر. لو أمكنني أن أتكلم عن هذا الأمر لأي إنسان فسيكون هذا الانسان أنت، وهذا وعد مني لك، ولكنني لا أستطيع. ليس الآن على كل حال.»

فقال: «إيمي، إذا كنت تعانين من مشكلة ما... فسأقوم بأي شيء، أي شيء قد يساعدك، وانسي كل ما قلته لك منذ دقائق. فلن يكون بيننا أي ارتباطات.»

فقالت وهي تحاول حبس دموعها: «آه، يا جون...» لقد أثرت عواطفه في نفسها، وكذلك صداقته الحقيقية في الوقت الذي كان لا بد أنه يتألم هو أيضاً. ما كان لها أبداً أن تحضر إلى هذا المكان فتقلب حياته، ولكنها لم تكن تعلم. لقد كانت تعلم انه كان يكن لها الاعجاب الطاهر الخالي من أي غرض. فهو لم يسبق له في الماضي، أن قال شيئاً ولو تلميحاً إلى أيّ شعور عدا الصداقة المجردة.

وعادت تقول: «جون، إني آسفة.»

فأجاب وهو يعود فيستقيم في جلسته بهدوء: «لا بأس. ولكنني موجود دوماً عندما تحتاجين إليّ. هل فهمت؟ وأنا عنيت ما سبق وقلته من أن ذلك سيكون من دون شروط أو ارتباطات. والآن، فلنتابع طريقنا نحو مقر عملك.»

كانت فترة بعد الظهر والمساء طويلة صعبة، حوت من المضايقات الصغيرة ما أوشكت معه، حين حان وقت انتهاء العمل، على الصراخ. لقد كان المطعم الصغير شديد الحرارة، ومواد الطعام لم تصل كما كان منتظراً، ما جعل آرثر يذهب لاحضارها تاركاً لها كل العمل. كما كان شعورها نحو جون حزيناً وكذلك نحو بلايد، ونحو كل شيء...

وفجأة، عادت إليها كل شكوكها ومخاوفها من أن تكون أخطأت في ما قامت به، عادت إليها بشكل مدمّر بالغ المرارة. إنها تريد بلايد، بحاجة إليه... ليس بإمكانها أن تمضي بهذه الحياة بعد الآن.

وراودتها رغبة مفاجئة في أن تكون أنانية، فتخبره بالحقيقة وتلقي بهذا العبء على كتفيه القويتين وتدعه يتصرف به كما يحلو له، ولكن هذا الشعور ما لبث أن مات في نفس اللحظة التي ولد فيها. ماذا ستكون نتيجة هذا؟ إنه، في البداية سينظر إليها بمزيج من الحب والشفقة والعطف وربما يتخلل كل هذا تغيير في المشاعر. وهي في أسوأ الأحوال، ستدمر حياته منذ اللحظة التي تعترف له فيها بالحقيقة.

وقفت على عتبة المطعم، تتنشق ملء رئتيها، الهواء النقي وقد غمرها شعور بالغ بالسرور لأنها ما زالت حية نشيطة وأن المستقبل ما زال أمامها طويلاً تغمره الظلال.

«إيمي؟» وكان هذا صوت بلايد يهتف باسمها، ليردها إلى الواقع المؤلم وهو يقول: «إن لي حديثاً معك. وسأوصلك إلى منزلك.»

كان قد خرج من خلال الظلال ليقف بجانبها. فحدقت به بشيء من الغباء وهي تشعر بمبلغ جاذبيته. وقالت تجيبه: «ليس لدينا ما نتحدث بشأنه على الاطلاق يا بلايد. لقد انتهى كل شيء بيننا.»

فأجاب ببرود وقد ومض في عينيه شيء لم تستطع أن تفهمه تماماً: «إنني لا أعارض في هذا. ولكن بما أننا، نحن الاثنين، نعيش حالياً في نفس هذه القرية، فإن علينا أن نصفي الأمور بيننا. ولن يشمل هذا مقابلاتك للفتى في وضح النهار.»

فقالت وقد ساورتها ثورة مفاجئة: «ولكن ليس عليك أن تعيش هنا.»

فنظر إليها بغطرسة، وهو يقول: «أما أنت عليك أن تعيشي؟ هل عليك ذلك؟»

فأجابته بحدة: «نعم. وإذا كان لديك نصف ما كنت أظنه عندك من الحساسية، لتركتني وحدي. إنني لست بحاجة..»

فقاطعها قائلاً بلهجة تكاد تكون قاتلة: «ولكنني لست حساساً، يا إيمي. ولا شك أن هناك صفات كثيرة تنقصني أيضاً. أما بالنسبة إلى ما تحتاجينه أو لا تحتاجينه!.. فأنا، في الحقيقة لا أهتم لذلك مطلقاً.»

فقالت بقنوط: «فلماذا أنت إذن هنا هذه الليلة؟ وما غرضك من تعذيبي بهذا الشكل؟»

فقال بشيء من الضجر: «آه، يكفي هذا. ألا ترينها مهزلة صغيرة؟ لقد سبق وأخبرتك بسبب وجودي هنا.»

فقالت وهي تنظر إلى وجهه الجامد الملامح: «لقد كنت أتحدث إلى جون. أتحدث فقط. إنك تريد أن تبعدني من هنا، أليس كذلك؟ هل هذا جزء من عقابك لي؟ هذه الملاحقة؟»

فسألها ببرود: «إذا كان الأمر كما تقولين، فلماذا تتوقعين مني شيئاً مختلفاً؟ إنني لم ألحظ من خلال تصرفاتك نحوي مؤخراً، أي حب أو اعتبار، أم لعل ثمة شيئاً فاتني؟ ويحك يا إيمي. كان علي أن ابتعد من هنا لأبدأ من جديد بدلاً من التعرض لهذا كله.» وأمسك بذراعها يجرها نحو السيارة بسرعة شعرت معها أن قدميها لا تلمسان الأرض، بينما كان هو يقول: «إذا أنت سمحت له بأن يتقرب منك مرة أخرى...»

فقالت وهي تحاول أن تجذب ذراعها من يده: «دعني.» ولكنها لم تنجح سوى في أن تسببَ لذراعها بألم جعل عينيها تدمعان وهي تصرخ: «بلايد.» وكان في صوتها ذعر حقيقي. وما أن وصلا إلى السيارة، حتى فتح لها

الباب ودفعها إلى الداخل بحركة واحدة، وهو يقول ببرود: «كفى صراخاً.» وبينما اتخذ مقعد القيادة، وأخذت هي تمسّد ذراعها، عاد يقول: «لقد قبلت برأيك السيء في شخصي، حتى انني ألغيت مسألة اختطافك إذا كنت تخافين من هذا. إنني سأنزلك فيما بعد أمام منزلك، ولكنني قبل ذلك سأخبرك عما ينبغي بالنسبة إلى ذلك الفتى. اتفقنا؟»

فأجابت بغضب: «كلا، لم نتفق. ثم كيف تجرؤ على معاملتي بهذا الشكل؟ إنني لست حزمة قش تلقي بها كيفما اتفق...»

فقال بمرارة وعيناه تلتمعان فجأة: «كلا، بل أنت زوجتي. وأنا، أولاً أنظر إلى هذا جدياً. لقد ظننت في البداية أنك نظرت إلى هذا الأمر بشكل عابث، أعني زواجنا، وكل شيء. إنما الآن إنني غير متأكد. إذ بعد أن رأيتك مع جون... أظن ان هناك شيء أكثر من ذلك، شيء لم استطع الوصول إليه تماماً بعد. لقد وجدت فيك كل ما أطلبه في المرأة يا إيمي، كل ما حلمت به. ومضت فترة غاب عن ذهني فيها حقيقة أني كنت أتمتع بميزة باهرة في الحكم على اتباعي.» وتصاعدت غطرسته وهو يتابع قائلاً: «وما زلت كذلك عندما تغضبينني. إنك الشخص الوحيد الذي يجعلني أفقد أعصابي بهذا الشكل.» ولم يكن هذا إطراء منه لها، وهكذا بقيت صامتة لا تكاد تجرؤ على التنفس.

وعاد يقول: «ولكن، عندما أعود بتفكيري إلى المنطق، أدرك أنه من غير الممكن أنني كنت مغفلاً إلى هذا الحد. وهكذا...» ونظر إليها مرة أخرى وقد بدا على ملامحه الكبرياء والسيطرة ثم تابع قائلاً: «لا بد أن شيئاً قد حدث أثناء تلك الثماني والأربعين ساعة التي كنت فيهما في

فرنسا، شيئاً في منتهى الأهمية والخطورة. ومن الممكن أن يكون ثمة رجل آخر عدا جون. ولكن تحرياتي لم تثبت شيئاً كهذا. إنني أعلم أنك قد قمت برحلة في السيارة مبكرة جداً في أول صباح، ثم عدت متأخرة في الليل. علمت ذلك من الخدم، ولكن سوى ذلك... لا شيء. إنني لا أحب الغموض يا إيمي، ولم أحبه قط وخاصة في هذه المسألة.»

ها هو ذا يقترب من الحقيقة، وسارعت تقول: «إنني أريد الطلاق وهذا وحده المهم...»

فقاطعها بخشونة: «كلا، يا زوجتي الصغيرة الحلوة. إن هذا ليس وحده المهم. إن عليّ أن أتقبل الآن فكرة أن بإمكانك أن تكوني أنانية قاسية، فهكذا تقول الوقائع، ولكن الشيء الذي أنا متأكد منه هو أنك غير سعيدة. ربما كنت قمت بعمل جعلك تنوئين بالندم والشعور بالذنب. إنني لا أعلم على كل حال، ولكنني لا بد أن أعلم.» ولم تستطع احتمال السخرية في عينيه وهو يتابع قائلاً: «لأنني أطالب بحقي فيك، فكل ما فيك يجذبني لك.» وأطلق ضحكة غريبة جمدت الدم في عروقها، ثم تابع قائلاً: «تماماً كما هو الحال معك. ولا تحاولي الانكار، وإلا جعلتني أشعر بالضجر.»

فهمست قائلة: «هل تحاول أن تجعلني أكرهك؟ هل هذا هو هدفك؟»

فقال ساخراً: «كلا بالطبع. لقد قررت فقط أن آخذ إجازة قصيرة، يا حبيبتي، فأتمشى بين التلال أثناء وجودي هنا. وهل يوجد مكان للراحة أحسن من هذا المكان الذي يبدو أنك تعشقينه؟ أخبريني يا إيمي.» وتغير صوته الآن ليصبح جافاً عنيفاً وهو يتابع قائلاً: «ألا تجلسين أحياناً بمفردك

تفكرين بي؟ تفكرين في الكلام الذي كنا نقوله لبعضنا؟ وكيف اعتدت أن تهتفي باسمي مرة بعد مرة...»

فقالت بعنف: «كفى. لا أريد أن أستمع إلى هذا.»

فقال يتحداها ساخراً: «لا تريدين؟ وكيف بإمكانك تجنب ذلك وأنت في سيارتي بسرعة خمسين ميلاً في الساعة والباب مقفل؟»

فشعرت، للحظة بانفعال عنيف يكتسح كل مشاعرها. رأته قاسياً كريهاً، ولم تعرف ماذا تفعل. كان يبدو وكأنه سلم نفسه لقوة عنيفة امتصت كل مشاعره الطيبة ولم يبق سوى الناحية السيئة منه.

ورفع حاجبيه الأسودين ساخراً وهو يقول: «حسناً، لا أظن الكلمات تعوزك؟ أخبريني مرة أخرى أنني لا أعني لك شيئاً، وأن الأمر كله كان غلطة وأنك لست مشتاقة إليّ في هذه اللحظة بالذات. أخبريني يا إيمي. فأنا عندما كنت صبياً، لم أسمع الكثير من حكايا الأساطير، ويحق لي الآن أن أسمع شيئاً منها.»

فقالت: «إنني أكرهك.» وكان هذا صحيحاً. لقد شعرت بذلك فعلاً. ألم يدرك أن عملها هذا إنما هو لأجله؟ وأنها تعاني أضعاف ما يعانيه؟ لو كان يحبها حقاً لما عاملها بهذا الشكل.

فأجاب عابساً: «سأقبل هذا منك، رغم أنني كنت أفضل لو أنك قلت كلمة أخف وقعاً من هذه. ولكن الكراهية هي على الأقل، حقيقية، أكثر حقيقة من ذلك الكلام الفارغ الذي كنت تغرقينني به منذ أيام. ليس بإمكانك أن تتجاهلي الكراهية، يا إيمي فهي لا تخفى.»

فحدقت فيه بحيرة قائلة: «إنني لم أتجاهلك، لم يحدث أن تجاهلتك قط.»

فقال بخشونة: «إنك إذن ممثلة بارعة جداً يا حبيبتي، إذ بعد أن ترددت عليك مرة أو اثنتين بعد حضوري إلى هنا، بدأت أظن نفسي رجلاً غير مرئي، رجلاً لا يراه ولا يشعر به أحد. ولكنني لن أبقى خارج الرؤية، أليس كذلك؟ إن هذا ما يشعرني حقاً بالمرارة والألم. هل ظننت حقاً أنني لن أحتاج سوى لسطرين تخطيهما على ورقة، لكي أتركك تتسللين من حياتي، تماماً كأحد بائعي الحليب الذين يضعون الحليب على بابك يومياً، إذ تتركين له ورقة تقولين فيها آسفة. من الآن فصاعداً أرجو أن تحضر حليباً منزوع القشدة؟ حسناً، إنني أريد القشدة، يا إيمي، وسأحصل عليها بأي شكل كان.»

فقالت بصوت كئيب منخفض: «إنك تتحدث عن الانجذاب.»

فقال: «أحقاً؟» وكان يسير بسرعة بالغة ولكنها لم تهتم لذلك، ففي هذه اللحظة بالذات لم يكن هناك ما يبعثها على الاهتمام. بينما تابع هو قائلاً: «حسناً، ما دمت تقولين هذا، فلا بد أن يكون صحيحاً. وعلى كل حال، فقد قطعت أنت كل شيء بيننا، فمن أكون أنا لكي أجادلك؟ ولكنني سأقول لك شيئاً واحداً وهو، إذا أنا رأيت مرة أخرى ذلك الحشرة يكلمك فستحدث جريمة سواء كان يحمل عكازتيه أم لا.»

وإذ نظرت إلى وجهه الغاضب، رأت من الحكمة أن تتجاوز عن إهانته تلك لجون، ولكنها عادت تقول بهدوء: «نعم، إنك تتحدث عن الانجذاب. الانجذاب الشكلي. ولكن إلى أين نحن ذاهبان على كل حال، فهذا ليس طريق البيت.»

فأجاب: «بالنسبة إلى الجزء الأول من حديثك، فلعلك

تذكرين أنني سبق وعرضت عليك الحرية في أن نكون حبيبين وليس صديقين، ولكنك رفضت أيّ تسوية بيننا. أما بالنسبة إلى الجزء الثاني، فالحق معك، فهذا ليس هو الطريق إلى منزل السيدة كوكس، بل هو طريق يؤدي إلى مكان آخر.»

فسألته: «إلى أين؟»

فلم يخطىء لهجة الحذر في صوتها، فابتسم ساخراً وهو يقول: «صبراً، يا حبيبتي. كل شيء سيظهر فيما بعد. وعلى كل حال لن يصيبك أي ضرر، تذكري أننا متزوجان وكل شيء يحدث بيننا هو شرعي تماماً.»

فقالت بتوتر: «إذا كنت تفكر على ارغامي بشيء فهذا ليس شرعياً سواء كنا متزوجين أم لا، إنني عندها لن أصفح عنك أبداً...»

ولولا السرعة الخطرة التي كان يقود فيها السيارة، لصفعته لتلك الابتسامة الوقحة التي بدت على وجهه وهو يقول: «ارغام؟ إننا نحن الاثنين، نعلم أن الأمر بيننا لن يعود ارغاماً، وذلك بعد ثوان قليلة. إنك تدعين البراءة كثيراً، ثم ما أسرع ما تنهارين.»

فمرت بيدها على عينيها وهي تحاول تمالك أعصابها، لا تكاد تصدق أنهما يتبادلان حديثاً كهذا. بينما كان هو يتابع ساخراً: «كنت أظن أن النبيل جون لا بد ينتظرك في عربته الملوكية، وخصوصاً بعد ذلك المشهد الذي رأيته يدور بينكما هذا النهار.»

فقالت بجمود: «لقد ذهب إلى لندن للعلاج. وقد سبق وقلت لك اننا كنا نتحدث فقط.»

فقال بلهجة رقيقة تخفي معنى مخيفاً: «إنك تقولين لي أشياء كثيرة، يا حبيبتي، وتنقية الحقائق من بين ما تقولينه هي مهمة متعبة.»

فقالت: «لن أجادلك يا بلايد...»

فقاطعها قائلاً: «هذا أفضل، فاجلسي إذن واستمتعي بهذه الرحلة.»

تستمتع بهذه الرحلة؟ لقد جعلتها هذه الجملة ترى ساندرا بوضوح غريب وكأنها معهما في السيارة.

كانت قد شعرت بالدهشة والارتياح عندما وصلت إلى منزل أختها في ذلك اليوم وسمح لها بالدخول، بعد أن كانت تحسب، طوال الرحلة أنها ستقابل بالرفض كما سبق وحدث عندما كانت في السادسة عشرة حين كانت متلهفة إلى تجديد علاقتها بالشخص الوحيد الذي بقي لها في الحياة من لحمها ودمها. ولكن ساندرا سمحت لها هذه المرة بالدخول. وعندما قادها زوج أختها إلى باب الغرفة الواسعة في الطابق الأسفل التي تتخذها ساندرا غرفة للنوم والجلوس معاً، قال لها يهيء ذهنها للمنظر الذي كانت على وشك أن تراه، قال لها هامساً قبل أن يقرع الباب: «إنها مريضة، يا إيمي. ولكنه تصرف حسن منها إذ توافق على رؤيتك، فهي بحاجة إلى أن تتصالح معك وتنسيا الماضي.»

لقد نظرت إيمي، في ذلك الحين إلى وجه زوج أختها الرقيق، وقد اتسعت عيناها حيرة وهي تسأله: «ماذا تعني؟»

فأجاب: «ستشرح لك ساندرا كل شيء.»

وفتح لها الباب بعد أن نقره، ثم قادها إلى الداخل وهو

يقول: «إنني في الحديقة إذا احتجتما إليّ، وسأحضر القهوة بعد قليل.»

رفعت أختها إليها بصرها، عند دخولها، بينما أجفلت إيمي وهي تراها لما طرأ عليها من تغيير. لشدّ ما حطمتها هذه السنوات الست.

وأتاها صوت أختها خفيضاً متوتراً وهو يقول: «إيمي الغالية الحلوة الرقيقة. إيمي الصغيرة. إذن فقد جئت في النهاية كما كنت أتمنى.» وكانت إيمي مندفعة نحوها لتعانقها، فتوقفت في منتصف الطريق وقد بدت على وجهها الحيرة وهي تنظر إلى ذلك الوجه الملتوي بشكل مؤلم، وهي تسألها: «أحقاً تمنيت ذلك؟»

فأجابت ساندرا بعينين ضيقتين: «وزوجك؟ ألم يأت معك؟»

فأجابت إيمي وقد تملكها شعور غريب وقف له شعر رأسها قائلة: «كلا.» لقد شعرت وكأن جوّ هذه الغرفة مشحون بشيء ما... شيء لا نهاية لفساده وشره.. ووجدت نفسها تتمنى من كل قلبها لو أنها بقيت في بيتها. وتابعت قائلة: «إنه يقوم برحلة عمل.»

ضحكت، عند ذلك، ساندرا وقالت: «بالطبع، هذا الرجل لا بد أن يكون مشغولاً.»

فأرغمت إيمي نفسها على النظر في عيني أختها اللامعتين وهي تقول: «نعم. إنما... كيف حالك؟»

فأجابت هذه: «كيف حالي؟» كان جسد ساندرا ملتوياً في كرسيها ذي العجلات، وقد غطت نصفها الأسفل بدثار كبير بينما يداها على ذراعي الكرسي وهي تقول: «إنني أموت، يا إيمي، ألا تعرفين هذا؟»

فردت إيمي: «إنك...» واختنق صوتها فتنفست بعمق وهي تتابع قائلة: «لقد قال زوجك إنك مريضة، ولكنني لم أدرك...»

فقاطعتها قائلة: «ثمة أشياء كثيرة لم تكوني تدركينها عندما جئت. ولكنك ستدركينها قبل رحيلك.» وكان في صوت ساندرا المرتجف سرور هائل وحقد بالغ وهي تتابع: «ولكن يبدو أنني نسيت حسن السلوك، فكيف حالك يا أختي الصغيرة؟» وشعرت إيمي في تلك اللحظة بأن شيئاً مخيفاً سيحدث عندما تابعت أختها تقول: «هل تستمتعين بالرحلة؟»

فأجابت إيمي وهي تحاول عبثاً الابتسام: «الرحلة؟»

فردت ساندرا بصوت كالفحيح: «أعني رحلة الحياة. ها أنت ذي بكل جمالك وصحتك وزوجك الثري، الثري جداً، لا بد أنك مستمتعة بالرحلة، أليس كذلك؟»

فأجابت بصعوبة: «إنني... نعم، أنا... نعم.» لقد كان في جو الغرفة شيء يجمد الكلمات في حلقها.

فابتسمت ساندرا بضراوة وحشية وهي تقول: «هذا جيد. لأن عندي لك بعض الأخبار، يا أختي الصغيرة.» ومن ثم ابتدأ عالمها يتحطم...

وأعادها إلى الحاضر صوت بلايد يقول: «ها نحن قد وصلنا.» فنظرت بحذر إلى الكوخ الصغير أمامهما والذي يقوم وحيداً وسط حديقة صغيرة، بينما كان هو يتابع قائلاً: «إنه الكوخ الذي استأجرته، فهو هادئ منعزل...»

فقاطعته وهي تلقي نظرة على المنطقة الريفية المحاطة بالغابات التي تحيط به «ومنفرد. أين يقوم أقرب منزل إلى هنا؟»

فابتسم ببطء وهو يقول: «على بعد نصف ميل. أليس هو مكاناً أميناً هادئاً؟ ثمة جدول ينساب في الحديقة قرب تلك الأيكة، ولكنه يبعد فقط خمس دقائق عن القرية.»

فقالت ببرود وهو يستدير حول السيارة ليفتح لها الباب: «إنني لن أعتبرك أبداً ريفياً جلفاً. فليس ثمة طريقة تجعلني أخرج من السيارة، يا بلايد. إنني أريد أن أعود الآن.»

فاتكأ على الباب وقد ظهر عليه أنه يستعرض كلماتها بقوله: «ريفياً جلفاً. حسناً، إذا كنت تعنين بذلك أن هذا المكان يعجبني، فأنا كذلك.» وحدق فيها بنظرة نفاذة وهو يتابع قائلاً: «ولكنني أحب كذلك الأنوار المتألقة فلا تسيئي فهمي. إنني رجل متطلب، يا إيمي وإن لي من حظي في الحياة ما يسمح لي بتلبيتها.»

حولت نظراتها عنه وهي تقول: «إنني أعني ما أقول ولن أنزل من السيارة.»

فقال متكاسلاً: «لا تكوني متعبة. فأنا إنما أقدم إليك فنجاناً من القهوة في نهاية يوم حافل بالعمل، وكذلك نظرة في هذه الأنحاء، وهذا كل شيء. على الأقل يتوجب عليك أن تنزلي لتتصلي هاتفياً بالسيدة كوكس لكي تخبريها عن مكانك وأنك ستتأخرين قليلاً.» وعندما لم تتحرك، اشتدت السخرية في صوته وتابع قائلاً: «إيمي، إنني رجل في السادسة والثلاثين وقد تركت مرحلة اقتناص الفرص. فأنا لا أريد سوى أن تكون علاقتنا على مستوى حضاري مهذب. والآن تصرفي كفتاة عاقلة وانزلي من السيارة قبل أن اضطر إلى حملك قسراً.»

وضحك فتوترت أعصابها للسخرية التي بدت في صوته ووجهه معاً، فسألته بلهجة متوترة: «وهل تضمن

لي أن تتذكر أنت ذلك، إذا أنا نزلت لقضاء فترة قصيرة؟»

فأشرق وجهه بابتسامة عريضة انقبض لها قلبها وهو يقول: «طبعاً، ما دمت واثقاً من أنك ستعاملينني بالمثل. ذلك أنه قد ساورني شعور كريه أكثر من مرة، في المدة الأخيرة بأنك تضمرين نحوي نوايا سيئة...»

كانت ضحكته الهادئة للثورة التي بدت على وجهها هي ما استفزها إلى الخروج من السيارة، رافضة بازدراء، يده التي امتدت لمساعدتها. أيظن نفسه أنه لا يمكن مقاومته؟ حقاً إن غروره لا يحتمل.

وعندما فتح باب الكوخ مشيراً إليها بالدخول إلى غرفة الجلوس الجميلة الصغيرة، قال لها بصوت هادىء راضٍ: «والآن، هيا إلى غرفة جلوسي. هذا ما قالته العنكبوت للذبابة.»

فألقت نظرة على وجهه الوسيم الخشن القسمات، وللحظة، تجمد الدم في عروقها. لقد كان هذا شركاً، شركاً نصبه لها بكل عناية. وفجأة ساورها ذلك الشعور الذي لا بد أنه ساور تلك الذبابة إزاء الشرك الذي نصبته لها العنكبوت، كما تقول حكاية الأطفال. ولكن إدراكها هذا كان بعد فوات الأوان.

الفصل السادس

قال لها: «كفي عن النظر إلي بهذه الطريقة المأساوية فأنا لن أكلك حية...»

وكانا جالسين أمام المدفأة القديمة التي تحتل الغرفة الصغيرة، فرفعت عينيها ببطء عن المدفأة التي كانت تحدق فيها، لتنظر إليه. ذلك أن أول ما صافح عينيها، مما أثار ذعرها، وهو هذه الباقة الضخمة من الأزهار النضرة الموضوعة في مكان النار والتي يعبق شذاها في أرجاء الغرفة. وما كان بامكانها أن تحصل على دليل أوضح من ذلك على أن تصرفها كان سليماً. وشعرت بالمرارة وهي تسأله: «هل تغير هذه، يومياً؟»

فنظر إليها بحيرة قائلاً: «ماذا؟»

أجابت وهي تأخذ جرعة من القهوة، آملة أن تتمكن، بذلك، من تهدئة أعصابها: «أعني هذه الأزهار، هل تستبدلها كل يوم بأخرى أكثر نضارة؟»

فنقل نظراته من وجهها الشاحب إلى تلك الأزهار الرقيقة، ثم أعادها إلى وجهها مرة أخرى، وقد ضاقت عيناه للتعبير الذي بدا في عينيها، ثم مال إلى الأمام ليتفرس في وجهها وهو يقول: «كلا. إنها من الحديقة هنا، وهي تبدو في وضح النهار، مزيجاً من ألوان كثيرة. وأنا أكره جداً أن ألقي بكل هذا الجمال، لهذا أوالي العناية بها وأغير لها الماء يومياً.» كان يتكلم وقد بدا شارد الذهن، ثم

ما لبث أن عاد يقول: «لِمَ هذا السؤال، يا إيمي؟ يبدو أنه يهمك بشكل ما؟»

فحاولت عبثاً أن تبتسم وهي تقول: «كلا، بالطبع. كل ما في الأمر أنني أتساءل عن ذلك.»

فقال: «فهمت.» ولكن كان واضحاً أنه لم يفهم، وشعرت هي بالارتياح لاكتفائه بتفسيرها هذا، بينما تابع قائلاً: «حسناً، ما رأيك في هذا المكان؟ أليس جميلاً؟»

فأجابت بحذر: «إنه جميل جداً.»

فقال: «كان عليك أن تري الطابق الأعلى. إن غرفتي النوم تمثلان طراز البناء الانكليزي القديم بالنوافذ...»

فقاطعته قائلة: «لقد سبق ورأيت كثيراً من الأكواخ في حياتي، يا بلايد. فأنا أعرف تماماً منظر غرف النوم فيها.»

وأخذت رشفة من قهوتها ثم نظرت في ساعتها للمرة الخامسة، وهي تقول: «في الواقع، لا بد لي من الذهاب الآن.»

فقال متجاهلاً ما تقول: «هل لك في شيء من الشراب مع هذه القهوة؟ يبدو عليك وكأنك بحاجة إلى ذلك.» وعندما هزت رأسها بالنفي، وقف ببطء وهو يقول مفكراً: «لا بد أن هذا مؤلم لك.»

فنظرت إليه باضطراب وهو يقف مشرفاً عليها، فتابع يقول: «أعني الطريقة التي تشدين بها شعرك إلى الخلف، لا بد أن جلدة رأسك تستغيث ألماً.»

ومدت يدها تريح عقدة شعرها بحركة واحدة. فتراجع خطوة ومضى يتأملها باستحسان قائلاً: «أخبريني الآن، أليس هذا أفضل؟»

فأجابت بحدة: «لقد كان جيداً في البداية. وأرجوك يا

بلايد، يجب أن أذهب الآن.» وأخذت تتحسس شعرها بيديها بارتباك وقد احمر وجهها. أي حماقة جعلتها تقبل بركوب سيارته؟ وأي جنون جعلها تتبعه إلى داخل هذا الكوخ؟

وكان هو يسير إلى منضدة هناك حيث سكب لها كوباً من شراب المانغا، متجاهلاً ما سبق من رفضها. أثمة شيء ما، يهدف إليه؟

ونظرت إلى الكوب في يده وهي تقول بعناد: «لقد سبق وقلت كلا، ثم أليس لديك كوب لنفسك؟»

فأجاب وهو يجلس ماداً ساقيه أمامه بكل ارتياح قائلاً: «لا أحب شرب العصير بعد القهوة.»

وفكرت بألم، وهي تراه مسترخياً تماماً، في مبلغ توترها هي. وحملقت فيه وهي تراه وكأنه غير شاعر بوجودها. وزادت خيبة أملها عندما اختلست منه نظرة من تحت أهدابها، لتراه وقد ألقى رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه.

ودون أن يفتح عينيه، قال يخاطبها بصوت جامد: «ما الذي يخيفك، يا ايمي؟»

فأجابت بصوت خافت بينما صدرها يخفق: «لا أدري ماذا تعني.»

فأصلح من جلسته على الكرسي وهو يبتسم ببرود بينما مازال مغمضاً عينيه، وهو يقول: «بل أظنك تدرين ما أعني. ما الذي تخافينه؟» وفتح عينيه السوداوين بينما كان يتابع قائلاً: «هل نستمر على هذه الحال طيلة الليل؟»

فقالت وقد بعث هدوؤه الخوف في نفسها: «أهذا ما تفكر فيه؟»

فحدق فيها ساخراً وهو يجيب: «إنك ماهرة جداً، ياحلوتي. في الواقع، أنا لا أفكر في هذا الأمر، ليس الآن على كل حال. ولكنني اكتشفت بالنسبة إليك، أنني لا أستطيع الوثوق بشعوري كما يمكنني في أي موقف آخر في حياتي. إنني لا أحب هذا، يا إيمي؟»

فقالت بلهجة عادية: «إنني في غاية الشوق إليك، فبالرغم من كل ما حدث، لا يبدو أن هذه المشاعر نحوك تخبو. إن هذا شيء مزعج جداً في الواقع.» واستقام في جلسته وقد تلاقت أعينهما لترى، للحظة واحدة، بلايد الحقيقي الذي تعرفه.

وقفت ببطء، شاعرة بالخوف ثم قالت: «حسناً، إذا كنت مستعداً للذهاب...»

فحدق فيها عابساً وهو يقول: «إنني غير مستعد. ثم إنك لم تتذوقي الشراب بعد.» وأخذت تنظر إليه بصمت وهو يمد يده فيأخذ فنجانه ليبتلع ما فيه من قهوة، ثم يقول لها: «أتريدين مزيداً من القهوة؟»

فأجابت: «كلا، شكراً.» وعادت تجلس في مقعدها، بينما مشى هو نحو المطبخ. وكانت تسمعه يسكب لنفسه فنجاناً آخر، بينما كانت تجلس متصلبة الجسم متوترة الأعصاب.

وجاءها صوته من المطبخ يقول بخشونة جعلتها تجفل: «إن محاميك قد أبلغ محاميَ بأنك لا تريدين أي تعويض طلاق مني بأي شكل كان. هل هذا صحيح؟»

فأجابت بصعوبة: «نعم، هذا صحيح. وعلى كل حال، ما دام الذنب ذنبي، فليس من العدل...»

برز عند العتبة، فكاد قلبها يكف عن الخفقان وهي تراه

يقول بغضب بالغ: «ما الذي تعنينه بالضبط بقولك، إن الذنب ذنبك، يا ايمي؟»

ياليتها تتوقف عن حبه، عن الشوق إليه، عن الشعور بالحاجة اليه، اذن لكان الأمر سهلاً للغاية، ولكنها واثقة تماماً من أنه مهما قال أو فعل بها فهذا لن يشكل أي فرق. إنه كان كل ما كانت تريده وما كانت تحلم به أثناء السنوات الطويلة الجافة التي مرت بها دون محبة او عطف من أحد. ها هوذا الآن يكرهها ويحتقرها، ويجب أن يبقى على ذلك.

وكان هو يتابع كلامه قائلاً: «أعني أنني أريد أن أعلم السبب في هذا الاضطراب في حياتك. إنني لا أنتظر أن يثنيك شيء تافه، زوج مثلاً، عن اتباع طريقك الذي تفضلينه في الحياة، ولكن، إذا لم يكن في هذا ما يزعجك، فان اشارة منك صغيرة إلى ماهية السبب، قد يكون فيها نفع ما.»

فحدقت فيه بعينين ملؤهما الخوف والاضطراب إذ رأته يقترب منها. وبعد، ما الذي بامكانها أن تقول؟

أرغمت نفسها على القول: «لقد سبق وأخبرتك، إنني فقط أدركت أن زواجنا كان غلطة. وهذا كل شيء، فنحن لم نكن منسجمين...»

فقاطعها قائلاً: «يا لعدم الانسجام هذا الذي تتحدثين عنه. إنك لي، يا إيمي، وستكونين لي على الدوام. ولو كنت اعتقدت لحظة أنك تماديت مع جون لكنت قتلته على الفور!»

كان يجاهد في سبيل تمالك نفسه، إلى أن وقف، ببطء دون أن ينظر إليها وهو يقول: «سأكون بانتظارك في الخارج إلى أن تكوني على استعداد، ولا تتعجلي إن أمامك كل الوقت الذي في الدنيا.»

وكان صوته جامداً بارداً وهو يتكلم.

وسمعت الباب الخارجي يفتح ثم يغلق، وبعد ذلك اصبحت وحدها، وقد أدهشها أن تجد نفسها تبكي بصمت حتى بللت دموعها خصلات شعرها وألصقته بوجهها. إنه لن يصفح عنها قط لذلك. وأرسلت هذه الفكرة الاكتئاب إلى نفسها لقد جعلت الأمور اكثر سوءاً، أو ربما... وأغمضت عينيها لخاطر كان كطعنة خنجر في قلبها... هل كان الأفضل أن يسوء الأمر بينهما لكي يقبل هو، في النهاية، فكرة أن الأمر قد انتهى بينهما حقاً؟ ولكنها لم تكن تريده أن ينتهي. وكانت هذه الكلمات تتفاعل في رأسها عنيفة حارقة. كانت تريد منه أن يستمر في المحاولة... تريده أن يظل قريباً منها لأنه إذا رحل... واتسعت عيناها ذعراً، إنه إذا رحل، فلن يعود قط بعد ذلك.

ووقفت متهالكة على نفسها والصداع يكاد يفجر رأسها. إنها في طريقها إلى الخبل، إلى الجنون... إن الأمر سينتهي بينهما بالطبع، وهي تعلم ذلك، فما الذي جرى لها؟ وهمست لنفسها وهي تزيح خصلات شعرها إلى الخلف بأنها في طريقها إلى الانهيار.

إنه لم يفهم قط الزلزال الذي عصف بكيانها، والذي يجمل كل شيء، إنها لم تعد جميلة بعد الآن... بعد أن دب في جسدها عطب لا يرجى اصلاحه وكلمات ساندرا تلك الدمية الصغيرة الرائعة الجمال، تلك الكلمات قد حفرت في روحها بأحرف من نار. ولكن دموعها، فيَ الوقت الذي وصلت فيه الى السيارة، كانت قد جفت. وألقى نظرة واحدة على وجهها الشاحب، ليعود فيركز نظراته على الطريق المظلم أمامه،

وليقول بخشونة بعد ذلك بدقائق: «هل أفهم من هذا أنك تطبقين درساً عملياً تظهرين فيه مهارتك في التحول من الايجابية إلى السلبية؟»

فردت عليه بهدوء دون أن تنظر إلى وجهه: «إنني لم أقصد هذا، يا بلايد. صدقني.»

فأجاب بسخرية مرة: «كنت أظن أنني أعرفك جيداً يا إيمي... كنت أراهن بحياتي على ذلك.»

تنفست بعمق وهي ترغم نفسها على الاستمرار.. على وضع آخر مسمار في نعشها، فقالت: «نعم، إنني أدرك ذلك الآن. ذلك أنك، كما سبق وقلت لك، كنت أول حب لي فأخطأت أنا إذ ظننت أن الجاذبية التي شعرت بها نحوك إنما هي حب أصيل. لم يكن لدي من الخبرة ما يجعلني أقارن...» وتلاشى صوتها وهي ترى التصلب البالغ الذي اعتراه، وهو يجيبها بصوت هادىء: «إنني لا أصدقك، يا إيمي، لا أدري لماذا. سمه حدساً أو حاسة سادسة أو أي شيء، ولكنني مقتنع بذلك رغم كل الأسباب التي أوردتها وإن كنت لا أنوي محاولة ثنيك عن عزمك هذا بعد الآن. فزواجنا قد انتهى، وأنا قبلت بهذا.»

فقالت تسأله: «هل قبلت حقاً؟» أين هو شعور الارتياح في نفسها لهذا؟ وأين ثقتها الراسخة في صواب ما قامت به؟ أين ذهب كل هذا الآن في الوقت الذي هي في أمس الحاجة إليه؟

وأجابها: «نعم، لقد قبلت.»

وساد الصمت بينهما بقية الطريق، ولكنها لم يسبق أن شعرت قط من قبل بوجوده الطاغي بقربها كما تشعر الآن.

كانت كل حركة منه، مهما كانت ضئيلة، تدفع أعصابها إلى حافة الانهيار. وعندما دخلا الطريق المؤدي إلى منزل السيدة كوكس، استدارت تنظر إليه وقد شحب وجهها، ثم قالت له بصوت خال من أي تعبير: «إنه الوداع إذن. أظنك عائد إلى لندن غداً، فلا بد أن لديك الكثير من العمل الآن أمامك.»

فأجاب: «نعم، لدي الكثير من العمل.» وعندما وقفت بهما السيارة، ترك المحرك دائراً بينما استدار يفتح لها الباب وهو يتابع قائلاً: «ولكنني سأبقى فترة أنهي بها العمل في حديقة السيدة كوكس، حسب وعدي لها. إنما ليس عليك أن تقلقي... فلن أتعرض لك...»

ونطق بالجملة الأخيرة بلهجة ساخرة.

فقالت: «شكراً.» إنه راحل، ربما بعد يوم، أو بعد أسبوع، معتقداً بأن هذه هي رغبتها، وأغمضت عينيها لحظة بشدة، إن عليها أن تقبل الآن فكرة أن كل شيء قد انتهى، ولم يكن قد حدث هذا من قبل. إنها تتساءل الآن، لماذا لم تكن تدرك أنها كانت ماتزال متمسكة به؟ وقالت: «الوداع يا بلايد.»

واستدارت مبتعدة دون أن تنظر إلى وجهه، متجهة إلى باب المنزل الأمامي لتنساب إلى الداخل وكأنها ظل أثيري بالغ الرقة والشفافية، بينما بقي بلايد يحدق في الباب، الذي أغلق خلفها، مدة طويلة. وعندما عاد إلى سيارته أخيراً، كان وجهه مبللاً بالدموع وهو يضرب المقود أمامه بقبضتيه مرة بعد مرة.

الفصل السابع

لو أن شخصاً ما قد أخبر إيمي أن من الممكن أن تضحك مرة أخرى، خصوصاً في حضور بلايد، لما صدقته، ولكن هذا ما حدث بعد مضي خمسة أيام على زيارتها المصيرية تلك إلى كوخ بلايد.

كانت الأيام قد سارت على نظام رتيب دون وعي منها. كان بلايد يصل قبل الظهر ليعمل في حديقة البيت الخلفية فيبقى إلى ما بعد خروجها للعمل، ومن سرعة تحسن مظهر الحديقة الأمامية، تكهنت إيمي بأنه كان يعمل فيها بعد خروجها لكي يتحاشى إي مواجهة بينهما، وقد كان هذا يؤلمها ولكن ليس كما لو كانت تراه. وكانت لا تفتأ تذكر نفسها بهذا كل ليلة وهي تتقلب ساعات في فراشها.

لو كانت تفكر في نفسها، لشعرت بالخوف للتغيير الذي طرأ عليها، ذلك أن إيمي القديمة كانت فتاة صغيرة أشبه بالأطفال تفتقد الشعور بالأمن وتعاني من الحاجة إلى حب الآخرين. أما هذه المخلوقة الجديدة التي كونها الألم والعذاب فقد كانت جد مختلفة... لم تكن تعلم ما إذا كانت هذه المرأة الجديدة هي الأفضل، كل ما كانت تعرفه أنها قد أصبحت الآن فتاة مختلفة عما كانت.

كان جون قد قال لها نفس الشيء عندما دخل إلى المطعم في اليوم السابق ليتناول طعام الغداء. وكان مما يشجعها على الاستمرار، هو شعورها بالألم لأجل بلايد اكثر منه لأجل

نفسها. فهو، على الأقل، سيكون أمامه الحظ في حياة طويلة مليئة حالما يضع المرارة التي خلفها في نفسه زواجهما الفاشل هذا، يضعه خلف ظهره. ولكن، ولغرابة الأحداث، أن إيمي الجديدة كانت أحرى بأن تكون دعامة قوية يستند إليها في حياته تلك، لو أن الأمور كانت مختلفة. وكان تفكيرها هذا يزيدها ألماً، وأثناء ساعات الليل الطويلة الأرقة، كانت تعود بها الذكريات إلى أوقات كان يعود فيها إلى البيت وقد استبد به التعب والارهاق الذي كانت أعماله الواسعة تسببه له. لقد كان يرهق نفسه في العمل. إنها تعلم ذلك الآن، ولكن بعد أن فات أوان تنبيهه إلى ذلك والترفيه عنه.

كان ذلك في صبيحة اليوم الخامس وكانت قد رجعت إلى غرفتها حاملة القهوة والخبز المحمص الذي صنعته بسرعة قبل وصول بلايد، عندما سمعت صوته العميق بلهجته الأميركية يحيي السيدة كوكس في المطبخ. لقد قفز عندذاك قلبها في صدرها، ولكنها ذكرت نفسها بحزم بأنها اعتادت هذا الآن. ومن ثم ساد السكون عدة دقائق.

وفجأة، انفجرت الجلبة صاخبة هادرة عنيفة، وفي نفس اللحظة التي تمكنت فيها من تمييز صوت بلايد وهو يشتم بصوت عال، سمعت صوت السيدة كوكس يناديها باضطراب شديد، وسرعان ما كانت تهبط الادراج بسرعة فائقة، ثم اندفعت مقتحمة المطبخ لتقف فجأة لدى اصطدام عينيها بالمشهد الذي بدا أمامها.

وبادرتها السيدة كوكس تقول لاهثة: «إنه سرب من النحل، ولا بد أنه أثاره.»

فردت كلمات المرأة بلهجة آلية قائلة: «سرب نحل؟»

بينما كانت تحدق في بلايد الذي بدا أمامها شامخاً جذاباً، وقد انتشرت لسعات النحل تكسو جلده بالاحمرار. وكان هو يحدق في السيدة كوكس غاضباً وهو يهدد مزمجراً، يقول من بين أسنانه بخشونة: «لم يكن ثمة حاجة بك إلى افتعال كل هذه الضجة. إن عدة لسعات نحل قليلة لا تؤذي أحداً.»

فأجابت المرأة باصرار: «إلا إذا كانت لديك حساسية. لقد كاد إبن أختي يموت من مجرد لسعة واحدة. فقد عانى منها بشكل مخيف.»

فقال بلايد وقد تمالك نفسه: «شكراً يا سيدة كوكس. ولكنني اطمئنك إلى أنني ساكون بخير تماماً.»

فأجابت المرأة: «أظن يوجد شيء من المرهم في مكان ما.»

ولم تعرف إيمي أهو كل هذه الضجة الفارغة، أم منظر بلايد الحائر الذي بدا فيه العجز هو الذي بعث فيها الرغبة في الضحك بشكل عنيف. فقد بدا من الحنق والثورة للسعات هذه الحشرات له بهذا الشكل أن جعلها تعض على شفتها إلى أن أدمتها، محاولة بذلك أن تمنع نفسها عن الضحك، هذا في الوقت الذي كانت السيدة كوكس تتابع فيه ثرثرتها عن إبن أختها وكيف أنه كان اقترب من الموت من جراء لسعة نحلة، مسهبة في وصفها ذلك بتلذذ واضح.

وأخيراً مدت إيمي يدها إلى داخل صندوق الاسعافات الأولية، لتخرج علبة فيها أنبوب مرهم وحبوب ضد الحساسية، قالت بهدوء وهي تشير إلى بلايد بالجلوس على مقعد منخفض: «ها إنني وجدته. علي فقط أن أغسل اللسعات بالماء البارد قبل أن أضع المرهم.»

فأجاب بلايد بفتور مظهراً الاعتداد: «إن بامكاني أن

أقوم بهذا بنفسي.» ولكن هذا المظهر سرعان ما تلاشى إزاء ما بدا عليه من الاجفال تبعه الحذر وهو يجلس على المقعد فيشعر بألم اللسعات في جلده.

سألته بعد أن تأكدت من أنه يقوم بعلاج بقية أنحاء جسده بنفسه: «أين ذهب سرب النحل الآن؟»

فأجاب بلهجة لاذعة: «أرجو أن تعذريني إذ لم أتوقف لأرى إلى أين ذهب السرب. فقد كنت مشغولاً بنفسي.» وكان في هذه الأثناء قد سار نحو النافذة ينظر من خلالها إلى الخارج.

فتدخلت السيدة كوكس قائلة: «لقد اندفع إلى الداخل كالكلب السلوقي صافقاً الباب خلفه بعنف كاد يقتلعه من مفاصله.»

وكان في هذا، القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقال. ذلك أن هذه الصورة التي رسمتها السيدة كوكس لواحد من أصحاب المال ذوي السلطة والشدة جعلت إيمي تفقد آخر ما تملكه من سيطرة على النفس لتنفجر بعاصفة من الضحك لم تستطع أن توقفها. ولكنها، أثناء ذلك، لم تغفل عن تغير ملامح بلايد من الدهشة المشوبة بشعور الاضطهاد إلى تهكم جاف، ليأخذ هو نفسه بعد ذلك، في الضحك. حتى كان بلايد قد عاد ليجلس على المقعد، وفي نفس الوقت كانت السيدة كوكس تتسلل خارجة من المطبخ، ثم تغلق الباب خلفها بهدوء.

قالت إيمي: «إنني آسفة...» وتدفقت ينابيع الدموع من عينيها دون توقف.

ومضت دقائق قبل أن يهدأ نشيجها ليتحول إلى شهقات متلاحقة، ثم لتهدأ بعد ذلك مرة واحدة. ونظر اليها متفحصاً عينيها البنفسجيتين الغارقتين بالدمع.

عادت تقول وقد توهج وجهها: «إني آسفة، إنني لم أقصد...»

فقاطعها بلطف وقد لمس ذعرها: «إهدإي يا حبيبتي، إهدإي. فأنا لم أعتبر هذا المشهد الطبيعي للضعف الانساني منك، لم أعتبره دعوة بأي شكل، إنه فقط مشهد لصديق يواسي صديقاً.»

فقالت وهي ترتجف بينما كانت تقف على قدميها: «إنك سبق وقلت إننا لم نعد صديقين، أتتذكر؟»

فأجاب بهزل جاف، بينما بدا الدفء في عينيه: «هذا يتوقف على الظروف. إذ عندما تعودين إلى شخصيتك القديمة، يعود العداء بيننا، هذا إذا أنت أصررت على ذلك.»

فهمست بصدق وقد اتسعت عيناها: «إنني لا أريد أن نكون عدوين، يا بلايد، إنني أريد...» وسكتت فجأة.

فقال ببطء: «لا أظنك تعرفين ماذا تريدين. لابد أنك سيدة مشوشة الذهن.» ولما شعر بعدم استجابتها لاستفزازه هذا، انهى مداعبته لها تلك بأن وقف على قدميه ليتناول أنبوب المرهم وهو يسألها بجفاء: «هل ستتابعين عملك التمريضي؟ لأن احدى النحلات قامت برحلة قصيرة مهلكة إلى إحدى قدمي.»

فاحمر وجهها وهي تقول بصوت خافت: «علي أن أستعد للذهاب إلى عملي.» واسرعت هاربة من المطبخ تلاحقها ضحكته الهازلة الخافتة.

وعندما أصبحت في غرفتها، أخذت تذرعها وقد أخذ رأسها يدور. أخذت تحدث نفسها بأنها كانت غبية.. غبية جداً، وأنه سيظن.. حسناً، ما الذي سيظنه؟ وجلست على سريرها الصغير الضيق وقد أغمضت عينيها بشدة. إنها لا تعرف، إنها لم تفهم قط ذلك العقل الهادىء المحلل ذا الذكاء

والدهاء الخطر. كانت تعرف أن زملاءه كانوا يشعرون نحوه بالخوف والاحترام معاً، وكان مشهوراً بأن ضربته هي عادة في الصميم لا تخيب أبداً، ولكنه، معها، كان مختلفاً تماماً. لقد كانت تسمع الملاحظات تدور حولها، في الحفلات والمجتمعات، بأنه لا بد أن يكون في حياته الخاصة بمثل ما هو عليه في حياته العامة، من القسوة والصرامة، وكذلك معها هي... وهزت رأسها ببطء. لقد كان رائع الرقة معها، على الدوام، وافر الحب لها.

كانت قد توقعت أن تجده في انتظارها أمام الباب الأمامي عندما خرجت للعمل بعد ذلك بساعة وقد أعدت نفسها لمواجهة لا مناص منها. ولكنها، وهي تخرج من الباب، لم تصافح عينيها سوى الخضرة المنتشرة حولها والأشجار المتموجة. كان اليوم رائع الجمال. ورفعت نظراتها إلى السماء الزرقاء بينما النسيم يعبث بخصلات شعرها الذهبية حول وجهها. وكانت بعض الزهور المتسلقة تنشر شذاها الفواح في الجو، بينما سرب من طيور السنونو يخفق مرتفعاً هابطاً حولها، انها حية، وأغمضت عينيها وقد استبد بها عنف هذا الشعور. مازال أمامها سنوات بامكانها فيها أن تسير وتتحدث وترى بشكل طبيعي، وتسافر وتكتشف أنحاء العالم قبل أن يدركها العجز.

ولكن بلايد لن يكون معها. وفجأة بدا لها كل ما عداه لا معنى له. وزحفت سحابة كبيرة فاتحة تحجب أشعة الشمس الدافئة، وتشيع البرودة في الجو. وقاومت، بعزيمة حديدية، شعور الاكتئاب الذي استولى عليها. لقد كانت أخذت على نفسها عهداً، بعد الأسبوع الأول الذي أذهلتها فيه الصدمة

والحزن على نفسها، في محاولة لاختراق الظلام الذي غلف روحها منذ سمم حياتها حقد ساندرا، أخذت على نفسها عهداً بأن لا تدع للحزن بعد ذلك مجالاً إلى نفسها، ولا للدموع ولا للبكاء على ما لا يمكن الحصول عليه. حسناً، إن من غير الممكن منع دموعها من الانهمار، أما الباقي فهو عائد إليها. وخاطبت نفسها بصوت عال وهي تتجه بسرعة نحو الطريق، قائلة: إنك لست فتاة صغيرة ولن تضيعي ساعة ولا دقيقة من الوقت الثمين في العويل والبكاء. واستمرت توحي إلى نفسها بذلك طوال الطريق إلى المطعم. ومن الغريب أنها ما أن ابتدأت بخدمة أول زبون، حتى استقام العالم أمامها مرة أخرى. ثم إن بلايد مازال موجوداً بقربها حالياً. وأومأت لنفسها وهي تتساءل عما ستصنع إذا هو رحل. لم تكن تعرف، ولكنه حالياً موجود، وبإمكانها أن تسمع صوته وتلمحه أحياناً وهذا يكفي.

وكان دفء الجو بشكل غير عادي بالنسبة إلى آخر شهر أيار (مايو)، قد جلب حشداً من السائحين إلى المطعم وكان مايزال غاصاً بالزبائن عندما دنا وقت الاقفال. وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة عندما خرج آخر زبون وصار بإمكان ايمي أن تخرج، ولكن لتجد أنها لم تعد تستطيع أن تخطو خطوة واحدة. ذلك أن المشاعر التي تفاعلت في نفسها هذا الصباح، إضافة إلى العمل الشاق طيلة النهار، كل ذلك قد استنفد منها الطاقة لتجد أنها أصبحت تخاف من السير للبيت وحدها في الظلام. وهكذا اختلطت في نفسها المشاعر عندما شاهدت سيارة بلايد تقف أمام المطعم مباشرة، وذلك عند خروجها إلى الشارع المظلم الهادىء.

وجاءها صوته عميقاً رقيقاً وهو يتقدم نحوها يخاطبها قائلاً: «إيمي، تبدين مجهدة منهكة.» وعندما نظرت إليه، أدركت في أعماقها، أنها إنما كانت تتمنى رؤيته، وجعل هذا الإدراك صوتها حاداً وهي تحملق في وجهه الجذاب وقوته البادية، لتقول بصوت متوتر وهي تشيح عنه ببصرها مبتعدة عنه: «أظننا اتفقنا على أن لا تتعرض لي. إنني لا أريدك أن تأتي إلي، يا بلايد. إنك...»

فقاطعها بصوت تلاشت منه كل رقته السابقة ليستحيل بارداً كالثلج: «دقيقة واحدة فقط. إن لدي ما أخبرك عنه...»

فقاطعته قائلة: «إنني لا أريد أن أسمعه.» ولم تعرف السبب في سلوكها السيء هذا، ولكنها لم تستطع أن تتوقف عن الكلام وهي تقول: «كم من المرات...»

فصرخ فيها مقاطعاً: «أقفلي فمك يا امرأة.» لم يصرخ بها قط من قبل. ونظرت إليه باستغراب، بينما تابع هو قائلاً وهو يرد شعره الأشعث إلى الخلف: «دعيني أكمل كلامي. إنه عن السيدة كوكس.»

فسألته دون أن تفهم شيئاً: «السيدة كوكس؟ ما بها؟»

فأجاب: «لقد اتصل بها أحد جيران أختها عصر هذا اليوم ليخبرها بأن أختها مريضة، فقد كانت تشكو من التهاب في الشعب استحال إلى ذات الرئة وأظن حالتها سيئة.»

فنظرت إليه بأسى وهي تقول: «آه، كلا. ولكن أختها هي كل مالها من أقارب.» وكان زوج السيدة كوكس قد قتل في الحرب قبل أن ينجبا أولاداً. وفضلتْ هي أن تعيش أرملة في القرية التي ولدت فيها، على أن تلتحق بأختها وزوجها كبير السن في اسكوتلندا. ومنذ وفاة زوج أختها منذ شهور،

توطدت الصلة بين الأختين فأخذتا تتبادلان الرسائل، وكانت الاتصالات الهاتفية بينهما يومية تقريباً.

وعاد بلايد يقول بهدوء: «لقد سافرت إلى أختها في قطار بعد الظهر، وقد وعدتها أنا برعاية المنزل... أما أنت...» وأنهى قوله عابساً: «اصعدي الآن إلى السيارة، وكفى تصرفاً مثل ممثلة رديئة في فيلم درجة ثالثة.»

فاحتجت قائلة بضعف وهي تصعد إلى السيارة الفارهة: «وكيف لي أن أعلم؟ لقد ظننت بعد هذا الصباح...» وسكتت فجأة والتفتت تنظر في عينيه اللتين استحالتا إلى جمود الصخر، وهو يكمل كلامها: «إنك ظننت بعد هذا الصباح أنني سأحاول استغلال ما حدث؟ يا لك من ذكية يا إيمي... ذكية حقاً، ولا أدري ما الذي كنت فعلته لكي أستحقك.»

ووصلا إلى المنزل في دقائق، وما أن أوقف السيارة، حتى نزل من مقعده واستدار حول السيارة يفتح لها الباب وهو يقول: «أدخلي وتفقدي المنزل إذا كان كل شيء على ما يرام، وسأنتظرك أنا هنا.» وتابع ساخراً بمرارة: «سأكون في الصباح هنا كالعادة، فمن المستحسن أن تصنعي فطورك باكراً. ولا لزوم لترك الباب مفتوحاً لأجلي لأن السيدة كوكس قد سلمتني المفتاح.»

فقالت: «هذا حسن.» وفتحت فاها لتستمر في الكلام، ولكنها عادت فسكتت، ذلك أن هذا لم يكن أوان الاعتذار وهي ترى عينيه اللامعتين على وجهها، وشعرت بعينيه تحرقان ظهرها وهي تسير متجهة نحو باب المنزل. وبعد أن أشعلت النور وتأكدت من أن كل شيء كالمعتاد، حتى وقفت عند الباب ترفع يدها إليه تطمئنه، وكان هو في

السيارة ينظر عابساً وسرعان ما كان يندفع بالسيارة على الفور منطلقاً تاركاً خلفه عاصفة من الغبار.

وتهالكت على كرسي في الردهة بعد أن ابتدأت ساقاها ترتجفان من الارهاق والانفعال، وهي تردد: «تباً لكل هذا، تباً، تباً...»

وفي الصباح التالي، جهزت لنفسها طعاماً حملته معها وهي تترك المنزل مبكرة جداً، وقد احمرت جفناها من قلة النوم. كان عليها أن تكون في المطعم عند الواحدة بعد الظهر كالعادة، ولكنها كانت قد صممت على القيام بنزهة سيراً على الأقدام إلى ما وراء القرية حيث كان الجو مثقلاً بروائح الأعشاب، والأزهار البرية المتفتحة تغطي الروابي.

تناولت طعامها تحت شجرة سنديان ضخمة محاطة بنباتات السعتر والثوم البري، واستندت بظهرها إلى جذع الشجرة ومضت تتأمل مياه النهر الفضية أمامها وهي تتدفق كشلال فوق الصخور والأحجار الزلقة الملساء.

كانت تفكر في بلايد بألم، متشوقة إليه. إنها تريد أن تعيش معه وتشاركه كل شيء، وتحمل أطفاله... وأيقظتها هذه الفكرة من أحلامها، التي كانت استغرقت فيها أثناء مراقبتها تدفق هذه المياه بحركته التي لا تنتهي.

تحمل أطفاله؟ ووضعت يدها على قلبها شاعرة بألم عنيف. أطفال؟ ونهضت واقفة بسرعة وهي تنفض ثيابها مما علق بها، بيد مرتجفة.

إنها لن تشعر أبداً بحياة جديدةً تنمو في أحشائها. ولن تستمتع برؤية وجه صغير عابس يصرخ يطلب اللبن. إنها لن... هذا يكفي. وكانت هذه صرخة صدرت عنها عالية فوق

خرير المياه كروح ضائعة معذبة، وكانت تتابع، لن يكون هناك شعور بالغثيان عند الصباح، ولا مظاهر حمل، ولا مشية متهادية بطيئة تنبىء عن الحمل. ورفعت نظراتها تحدق في الغصون الخضراء المتدلية فوقها، الأغصان الكثيفة الأوراق والتي كانت تصد الشمس تماماً، ومازال صوتها يعلو، ولن تكون هناك شيخوخة، ولا شعر أبيض.

ونظرت حولها فجأة.. ما الذي كانت تفعله؟ أتتحدث إلى نفسها كما لو أنها جنت؟ لم تكن هذه العزلة فكرة صائبة على كل حال، إذ أمامها وقتاً طويلاً للتفكير.

كان في العمل، العلاج الطبيعي المعتاد لنفسيتها المرهقة، ولكنها وجدت نفسها لدى اقتراب انتهاء دوام العمل في الحادية عشرة ليلاً، تقف على الدرجات خارج المطعم، والخوف والرجاء يتنازعانها لرؤية سيارة بلايد، غير أن المكان كان خالياً.

ولكنها عندما تركت المطعم بعد ذلك بربع ساعة، لم تلحظ ذلك الشبح الطويل الذي خرج من بين الظلال ليتبعها بصمت، محاذراً أن تراه، إلى أن وصلت إلى منزلها بأمان، لتشتعل الأنوار في الداخل تنبىء عن وصولها. ووقف بلايد في الظلام بعض الوقت، واضعاً يديه في جيبي بنطاله وقد بدا الجمود على وجهه، ليستدير بعد ذلك في حركة عنيفة ويبدأ بالسير عائداً من حيث أتى.

وبعد ذلك بدقائق، كان الضوء في المنزل قد عاد فخبا.

* * *

مع أن إيمي كانت تشعر بوجود بلايد في المكان، وذلك في

تحسن الحديقة الملحوظ، وفي وجود شرابه المفضل في ثلاجة السيدة كوكس، إلا أنها لم تقابله وجهاً لوجه منذ الليلة التي سافرت فيها السيدة كوكس. وكان هو قد استأنف نظام العمل في الحديقة الخلفية الواسعة، عند ذهابها إلى عملها في وقت الغداء. كما أنها كانت هي كذلك تتوخى الحذر من الالتقاء به. وهكذا، عندما استيقظت صباح يوم الأحد على رائحة الروستو الشهية تملأ جو المنزل، ظنت أن السيدة كوكس قد عادت أثناء الليل، فهبطت مسرعة إلى الطابق الأسفل لتندفع إلى المطبخ هاتفة: «صباح الخير.»

واستدار بلايد من حيث كان يعمل في تحضير الخضار الطازجة أمام حوض المطبخ، وضاقت عيناه لدى رؤيته لها ثم رفع يده العريضة بتحية ساخرة وهو يقول: «كذلك صباحي قد تحسن بدرجة كبيرة في الثواني القليلة الماضية.»

فقالت: «لقد ظننتك السيدة كوكس. ما كان لك أن تكون هنا.»

فمال بظهره إلى الحوض وأخذ يتأملها ببطء من رأسها إلى أخمص قدميها، ثم هز كتفيه قائلاً وهو يستدير ليتابع عمله في الحوض: «من يقول هذا؟ هنالك زجاجة عصير في البراد، إفتحيها إذا شئت.»

فصرخت محتجة: «أنا؟ وبثيابي هذه؟»

فقال بصوت بدا فيه الهزل: «إن هذا لا يهمني. ولكن بامكاني الانتظار عدة دقائق إذا شئت أن تغيري ملابسك.»

فقالت: «ولكن ما كان لك أن تكون هنا، ماذا لو أن السيدة كوكس...»

فقاطعها قائلاً: «إيمي... إذهبي وغيري ملابسك، يا

حبيبتي مضى على انفصالنا الشكلي ثلاثة أشهر الآن، ومنظرك بهذا الشكل يعيدني إلى الماضي.»

فقالت: «ثلاثة أشهر وثلاثة أسابيع ويومان.»

ولم تعرف ما الذي دفعها إلى هذا القول، ولكنها تابعت قائلة: «إنني أعلم هذا تماماً، يا بلايد.» فقال وقد جمد في مكانه: «من المؤكد أنك تعلمين.» واقترب منها يطيل النظر في وجهها قبل أن يديرها برفق دافعاً إياها إلى الدرج الضيق وهو يتابع قائلاً: «ولمعلوماتك الخاصة، فان السيدة كوكس تعلم بوجودي هنا. لقد كنت اتصلت بها هاتفياً مرتين للسؤال عن صحة أختها.»

فالتفتت إليه، وهي في منتصف السلم، تسأله: «أحقاً؟ وكيف هي؟»

فأجاب بجفاء: «لا بأس، وحالتها، على كل حال، أفضل من حالتي أنا الآن. وأعود فاقول، اصعدي وغيري ملابسك.» فاندفعت صاعدة ودخلت غرفتها وقلبها يخفق وقد دب الوهن في ساقيها. ما الذي أتى به؟ لقد كان الحال معها على ما يرام. صحيح أنها لم تكن تاكل أو تنام جيداً، ولكن ذلك كان سيتحسن مع الزمن. وكذلك الدموع، ولكن هذا كله كان منتظراً. والخلاصة أن أحوالها كانت مستقرة.

وارتدت بنطالاً قطنياً يعلوه قميص مقفل فضفاض ينزل إلى ركبتيها، جاعلة من شعرها ذيل حصان. هل تضع زينة على وجهها؟ هزت رأسها لنفسها في المرآة وهي تقول، كلا، لا زينة، لا... يبدو أنه يطهو طعام الغداء، وهذا حسن. إنها ستاكل معه بكل أدب، وتتحدث معه قليلاً ثم تلمح له إلى أن وقت ذهابه قد حان. ليس هناك أي مشكلة.

ولكن أفكارها سخرت منها عندما دخلت المطبخ لتجد أن الباب الخلفي مفتوح على الحديقة وقد امتزج شذا الأزهار والرياحين مع رائحة الروستو. وجاءها صوته يقول: «إنني هنا. تعالي وانظري، ثم قدمي إعجابك وتقديرك.»

وكان ذلك صحيحاً. فقد كانت الحديقة الخلفية قد تغيرت في أسبوع من حديقة مهملة، إلى حديقة كوخ جميلة انتشرت فيها أحواض الزهور المتنوعة بينما تحيط بها الأشجار المثمرة. وقال بلايد ساخراً حين رآها صامتة مأخوذة: «إن الأعشاب التي تغطي الأرض لم تنبت جيداً بعد، ولكنها ستصبح مناسبة مع الوقت.» ولكن الواقع أن ما شتت أفكارها وأذهلها هو منظره مستلقياً على مقعد للتشمس. وكان هو يتابع قائلاً: «تعالي وتناولي معي كوب عصير. إن مقاعد التشمس هذه هي هدية صغيرة مني للسيدة كوكس. بالمناسبة، لقد فكرت هذا النهار باستعمالها نظراً لحرارة الجو.»

فجلست على طرف مقعدها، ومدت يدها تأخذ منه كوب العصير وهي تومىء شاكرة وقد سادها التوتر.

وقال بعد لحظة صمت: «يبدو وكأن شهر حزيران (يونيو) سيكون، حاراً ملتهباً. ألا تظنين أن النزهة قد تشعرك براحة أفضل؟»

فأجابت: «كلا، شكراً. إنني كأحسن ما يكون.»

فجلس فجأة وهو يقول: «كأحسن ما يكون؟ هذا لا يبدو عليك، يا إيمي. فقد نحل جسدك تماماً.»

وكان هذا لوماً واضحاً احمر له وجهها غضباً وهي ترشف من كوبها، بينما كان هو يتابع قائلاً: «ثم إنك تبدين مرهقة تماماً.»

فقالت بسرعة: «إن العمل كثير في المطعم، فماذا كنت تنتظر.»

فأجاب: «انتظر منك أن ترتاحي حين تجدين فرصة لذلك. وبما أننا شخصان ناضجان الآن، ولسنا مراهقين نحاول مقاومة التجربة، فتعالي واستلقي ساعة في الشمس قبل الغداء.»

فأجابت بغضب: «ولكني لا أرغب بذلك.»

فأجاب: «حسناً. هذا ليس اقتراحاً مني ولكنه أمر، يا إيمي. فلا تحولي الأمر إلى معركة بيننا.»

فقالت وقد بدا في عينيها الألم: «إنني لا أفعل هذا.»

فقال: «بل تفعلينه. إنك أوضحت تماماً بلسانك أنك لم تعودي تهتمين بي، فليكن هذا إذن.» وأغمض عينيه برهة ليعود فيقول متهكماً: «لقد حطمني هذا، بالطبع، ولكن قد يكون بامكاني أن أعود إلى الحياة من جديد. بإمكاننا أن يتجاهل فيها أحدنا الآخر إلى أن يحين وقت الغداء، إتفقنا؟»

فقالت: «لشد ما أنت داهية ماكر...»

فقاطعها قائلاً: «هذا صحيح، صحيح. ولكن لا تضيعي طاقتك القليلة الثمينة باجهاد عقلك دون فائدة، يا صغيرتي.»

استلقت على المقعد المستطيل. وشعرت برأسها يدور قليلاً، وهي تختلس نظرة إليه، عليها أن تتذكر الآن أن هذا لم يعد زوجها بلايد فوربس الحبيب، وإنما هو بلايد فوربس خصمها، ومن الأفضل أن لا تنسى هذا.

ولكنه كان يبدو رائعاً، ووجدت أن ليس بامكانها أن تحول

نظراتها عنه. لقد كان يبدو فعلاً كنجم سينمائي، وعاد إلى ذهنها مشهد في جنوب فرنسا حدث لها أثناء شهر العسل. وكانا، هي وبلايد، سائرين نحو يخت أحد أصدقاء بلايد، حين التقطت أذناها حديثاً يدور بين فتاتين، وكانت إحداهما تقول للأخرى: «أنظري إلى هذين، إنني متأكدة من أنهما نجمان سينمائيان. يا له من رجل رائع، كما أنها هي أيضاً جميلة... وذلك المركب... هل نطلب منهما توقيعهما؟ لقد كلفتنا هذه الرحلة كثيراً فلا أقل من أن نستفيد منها قدر استطاعتنا.» وأجابتها صديقتها: «لا تكوني حمقاء يا ترايسي، ربما ليس هما سوى شخصين عاديين مثلنا.» فأجابت ترايسي ساخرة: «أتقولين مثلنا؟ هيا يا شيرل... ليس في شكلهما ما ينبىء بأنهما مجرد شخصين عاديين.»

وفيما بعد، عندما كانت مع بلايد في غرفتهما، أخبرته عن تلك المحادثة التي سمعتها، منتظرة أن تراه يضحك، ولكنه تأمل وجهها وقد ارتسم في عينيه الهيام وهو يقول: «إنهما محقان مئة بالمئة، فجمالك غير عادي. وأنا لم أر في هذا المكان إمرأة يمكن أن تنافسك. والشيء الغريب هو أنك لا تقدرين جمالك حق قدره. لماذا يا حبيبتي؟»

وكانت هذه هي النقطة التي جعلتها، عند ذاك، تكشف عن جراحها الدفينة. لقد أفرغت كل أحزان طفولتها، كراهية أختها ساندرا لها، شعورها المستمر بأن عليها أن تعتذر في كل لحظة عن كونها جميلة المظهر. واستمع إليها بلايد بحنان وحب جعلها تشعر بنفسها بأنها اسعد امرأة في الكون، ثم أخذ يتحدث إليها حتى غربت الشمس، ما جعلها تشعر، بذلك العبء يخف عن كاهلها بعد أن نقلته إلى كاهله.

وفاجأها صوته يقول: «بماذا تفكرين؟» ولم تكن هي واعية إلى أنه كان، طوال الوقت، يراقب وجهها الذي كان ككتاب مفتوح.

فأجابت بهدوء: «لا شيء مهم.» وأرغمت نفسها على أن تدع الماضي للماضي، وتركت شعرها يغطي ملامحها المرتجفة نتيجة تلك الذكريات، لشد ما كانا سعيدين، بل في منتهى السعادة. كان عليها أن تعلم أن سعادة بهذا المقدار لا يمكن أن تدوم.

لكنه قال وهو يلوي فمه ساخراً: «إنك كاذبة... ولكنني سبق ووعدتك بساعة سلام، فتمددي إذن واستمتعي بأشعة الشمس. ولا أريد أن أسمعك تذكرين اسم رجل معين، لا يوجد سوانا، نحن الاثنين، هل فهمت؟ وسأوقظك عند وقت الغداء.» وأدركت من النبرة الفولاذية التي تخللت صوته الساخر، أنه كان يعني كل حرف مما قال.

قالت: «لم أكن أعرف أنك تجيد الطبخ.»

فأجاب بلطف: «هناك أشياء كثيرة لا تعرفينها عني، يا حبيبتي. ولكننا لن نتكلم عن هذا الآن.»

فسألته: «لماذا؟»

أجاب: «لأن ذلك لن يعجبك، إنني لا أعرف أي نوع من الرجال تظنينني، يا إيمي. ولكنني لا يمكن أن أتنازل أبداً بسهولة عما أعتبره ملكاً لي، كما تظنين... حسناً، فلندع هذا الموضوع الآن. وكما سبق وقلت لك، استمتعي بوقتك...»

كيف يمكنها أن تستمتع وأعصابها غاية في التوتر؟ وأرغمت نفسها على الاستلقاء مغمضة العينين. لقد كان في

صوته غضب واضح وهو ينهي حديثه، انه لم يستسلم وقد كانت مجنونة حين ظنت العكس. فهو لن يستريح حتى يحطمها ويجعلها تنهار على قدميه معترفة بكل شيء. وذلك ما يريده، واستبد بنفسها الألم. إنه انتقامه منها لخيانتها عهد الزوجية، إنه عقابها للحزن الذي سببته له...

لا بد أنها نامت، لأنها عندما شعرت به ممسكاً بيدها، مدت يدها هي الأخرى تمسك بيده وقد انطلقت مشاعرها من عقلها الباطني ليدفعها إلى الهمس بذلك الاسم الذي لا يفتأ يراودها في أحلامها: «بلايد...» وشيئاً فشيئاً، ابتدأت تفتح عينيها لتتجمد نظراتها على الوجه الذي كان امامها «بلايد.» وهذه المرة انطلق إسمه من فمها بذعر وقد اتسعت عيناها وهي تقول: «ما الذي تفعل؟»

فأجاب ببطء: «أظن ما أفعله واضحاً، إنني أدعوك إلى الغداء طبعاً.»

فقالت وهي تكتم آهة شوق كادت تفلت من فمها: «الغداء؟ لا أفهم.» وللحظة لم تستطع أن تتذكر أين هي، وما لبثت حواسها أن عادت إليها وهي تشم رائحة الحديقة، فاستوت جالسة بعنف كادت معه أن تصدم بلايد فتوقعه عن المقعد، وصاحت به وهي تدفع عنها يديه باستنكار: «أبعد يديك عني.»

فتجمد لدى استنكارها هذا، وتوتر جسده وهو يقول: «بالتأكيد.» وعندما وقف رأت ملامحه تتجهم وقد بدت في عينيه لمعة ساخرة وهو يتابع قائلاً: «كنت فقط أحاول إيقاظك، يا حبيبتي. إن ردة فعلك فقط هي التي جعلتني أستمر.»

فقالت شاعرة بالاهانة: «لا أدري ماذا تعني.» فأطلق

ضحكة ناعمة جمدت الدم في عروقها، وقال: «كلا؟ أتستغفلينني، يا إيمي؟»

فارتجفت شفتاها لسخريته تلك وأجابت قائلة: «كنت نائمة. كنت أحلم.»

وسرعان ما تلاشت سخريته وهو يرى مبلغ الضيق الذي بدا عليها، فانحنى بجانبها يتفحص وجهها بعنف آثار اضطرابها وهو يقول: «إيمي، هل هناك خطأ في تجاوبك مع زوجك؟ ما الذي جرى لك يا امرأة؟ يبدو الأمر وكأن...»

وسكت فجأة، ثم هز رأسه وهو يقف قائلاً وقد تجهم وجهه: «يبدو الأمر وكأنك ترغمين نفسك على أن تكرهيني. لماذا؟»

فأجابت وهي تنزل عن المقعد: «ليس الأمر بهذا الشكل. إنك لا تفهم.»

فقال وهو يزمجر، ما أرسل قشعريرة في جسدها: «هذا صحيح تماماً.» وتساءلت أتراه مازال يحبها؟ وشعرت بقلبها ينقبض لهذه الفكرة. ربما لم يعد يحبها. وأيضاً عذبتها هذه الفكرة. ولكن كيف يمكن أن يبقى على حبه لها بعد كل ما حدث؟ إنها لا تلومه.

وقالت دون أن تستطيع النظر إلى وجهه: «إنك ذكرت الغداء، وأنا أكاد أموت جوعاً.»

وساد صمت طويل قبل أن يجيب قائلاً: «وكذلك أنا.»

الفصل الثامن

استدارت ايمي بسرعة لترى مجموعة من الفتيان تدفع باب المطعم بعنف لا ضرورة له وهم يهتفون بها: «أما زال لديك بعض الطعام؟»

فرسمت على شفتيها ابتسامة مهذبة وهي تقول: «إننا على وشك الاقفال، ولا نلبي أي طلب بعد العاشرة.»

فقال أحدهم يخاطب آخر: «إن هذا مؤسف، أليس كذلك يا ميك؟»

فابتسم ميك بمكر وهو يومىء برأسه دون أن يحول عينيه عن ايمي، بينما تابع الأول قائلاً: «ذلك لأننا عطشى قليلاً، إن الفتيان يريدون قهوة وشيئاً يؤكل، أليس كذلك يا أصحاب؟» وكان المتكلم فتى ضخماً قوي البنية في حوالي العشرين من العمر. وتابع قائلاً: «وهم سيغضبون إذا لم يحصلوا على ما يريدون.»

وصاح بها آرثر صاحب المطعم بعد أن سمع نهاية الحديث وهو يخرج إليهم من المطبخ: «ايمي.» وأومأ برأسه نحو الفتيان الذين كانوا الآن قد تحلقوا حول مائدة بجانب النافذة، وتابع يقول: «أظن ما زال لدينا بعض الكعك المحلى بالسكر، كما ان ابريق القهوة ما زال ساخناً.» وأشار إليها بأن تأخذ مكانه في المطبخ وهو يقول للفتيان مسترضياً: «لا بأس يا شباب.»

فقال الفتى: «حسناً، هيا إلى ذلك، يا فتاة.»

فسارت الفتاة نحو المطبخ بعد أن ألقت عليه نظرة لاذعة

وهي تفكر ساخرة في أنه يتصور نفسه شيئاً مهماً. وجلست في المطبخ حيث كان يصل إليها من غرفة الطعام أصوات تلك الفتية وشغبهم وقهقهاتهم الساخرة. وأغمضت عينيها برهة وقد شعرت بالراحة لابتعادها عنهم، وذلك قبل أن تبدأ بتسخين القهوة والكعك.

وسرعان ما كان آرثر قد تبعها وقد بان على وجهه القلق ليقول لها: «إنني آسف لإعادة تكليفك بهذا، ولكن من الأفضل أن نداريهم. هل سيأتي جون لاصطحابك هذه الليلة؟»

فألقت نظرة مضطربة إلى باب غرفة الطعام وهي تجيبه: «كلا، لقد طلبت منه عدم الحضور.» وكانت هي قد ظنت أن من الحكمة أن تطلب منه ذلك نظراً إلى وجود بلايد، أما الآن...

فقال آرثر بقلق وهو ينظر من خلال زجاج باب المطبخ: «هذا مؤسف.» وأخرج الكعك من الفرن فرشّ السكر فوقه وهو يتابع: «أظنهم نفس المجموعة التي جاءت في الصيف الماضي وسببت كل تلك المشكلات. حيث بقوا أياماً في هذه الأنحاء يزعجون الفتيات ويقومون بكل تصرف سيء مقيت إلى أن تورط تشارلي معهم.»

فحملقت إيمي به تسأله: «تشارلي؟ ومن هو تشارلي هذا؟»

فتجهم وجه الرجل وهو يجيبها: «إنك لا تعرفينه. لقد كان من رجال الأمن في القرية، وكان فتى ضخماً قوياً. لقد طردهم ذات ليلة، وفي الليلة التالية هوجم من قبل أشخاص مجهولين ضربوه حتى فقد وعيه ثم تركوه في بركة من الدم. ومنذ ذلك الحين وهو في المستشفى لا يستطيع كلاماً ولا حراكاً.»

فشحب وجه إيمي وهي تقول: «أوه، يا آرثر. ماذا سنفعل الآن؟»

فأجاب: «إنني لم أقل انهم هم أنفسهم من فعل ذلك. فتشارلي لم يستطع قط أن يقول شيئاً عن ذلك كما أن أولئك الفتية قد اختفوا منذ ذلك الحين. وقد مرت مجموعة من المسافرين بهذه الأنحاء، فحقق رجال الشرطة معهم لمدة أيام اضطروا بعدها إلى السماح لهم بالذهاب، حيث لم يجدوا أي إثبات ضدهم، ولكن الأهالي هنا كان لهم رأيهم الخاص في أنهم هم المذنبون. فاجلسي أنت في المطبخ وسآخذ أنا لهم ما طلبوه.»

فأسرعت إيمي تضع خمسة فناجين على صينية مع طبق الكعك وتناوله إياه بيدين مرتجفتين، وهي توصيه قائلة: «لا بأس. كن حذراً.»

وما أن خرج آرثر إليهم، حتى سمعت إيمي تعليقاتهم البذيئة الفاحشة تتصاعد، وتجمدت هلعاً وهي تسمع اسمها إذ تسمعهم يصيحون به: «وأين هي إيمي الجميلة إذن؟ إن بامكانها أن تسدّ الحاجة.»

وعاد آرثر إلى باب المطبخ وهو يقول لهم: «اهدأوا يا شباب. إننا لا نريد أيّ مشاكل، أليس كذلك؟» وفي نفس الوقت أشار إليها خفية بالاتصال بالهاتف وهو يهمس لها قائلاً: «أطلبي الرقم ٩٩٩ يا إيمي. أظننا مقبلين على بعض المضايقات.»

وكانت قد أنهت المكالمة لتوها عندما فتح باب المطبخ ودخل منه اثنان من الفتية ببطء وأعينهم الصغيرة تلتمع مكراً وهي تنتقل من وجهها الخائف إلى وجه آرثر المتجهم، ثم يشيران إلى ابريق القهوة قائلين: «نريد مزيداً من القهوة، وهذه المرة نريدها هي أن تحضرها لنا يا جدي.»

فقال آرثر بجمود: «إن عملها يختص بالمطبخ. وأنا سأحضر إليكم ما تطلبونه.»

فأجابه أحدهما: «هل أنت أصم بقدر ما أنت غبي، أيها الرجل العجوز؟» وقبل أن تجد إيمي ما يمكن أن تقوم به، كان الفتية الثلاثة الباقون قد تبعوا رفيقيهما، فسحب اثنان منهما آرثر خارج الباب حيث أجلساه على كرسي، بينما أرغم الآخر إيمي على الدخول إلى غرفة الطعام وهو يقول: «سنترك عليك حراسة، يا جدي.» وبينما أخذ أحدهما يغلق مصاريع النوافذ، انتاب إيمي رعب كاد يكفّ معه قلبها عن الخفقان، فأطلقت صرخة عالية قبل أن تطبق يد ضخمة قذرة فوق فمها. بينما صرخ رجل ذو وجه ينطق بالشر قائلاً: «اخرسي. كمم فمها. فهي ستحدث الكثير من الجلبة قبل أن ننتهي.» وكان يتكلم وهو يضع المزلاج على الباب ثم يستدير فيشير إلى الاثنين اللذين كانا يمسكان بآرثر على الكرسي قائلاً: «لا تتركاه، وإذا حاول أن يزعجنا، فاضرباه بشدة. أما أنت.» وقرّب وجهه من وجه آرثر وهو يقول: «تذكر أننا إذا نحن قمنا بعمل، فإننا نعمله بكل كفاءة. كما حدث الصيف الماضي، هل تذكر؟»

فنظر واحد من الفتية يبدو أحدث سناً من البقية وأنظف مظهراً، نظر باضطراب إلى قائده قائلاً: «أقفل فمك، يا بيف. لقد أفلتنا من العقاب تلك المرة، فلا...»

وضاعت بقية تحذيراته عندما انفتح باب المطعم المقفل بضربة بلغ من عنفها أن إيمي ظنت أن أحدهم قد أطلق رصاصة من بندقية. وإذا بها ترى بلايد واقفاً في مدخل الباب، وقد استوعبت عيناه المتألقتان المشهد الذي أمامه بنظرة واحدة، وكان مظهر وجهه يجمد الدم في العروق.

وصرخ مزمجراً بمثل صوت الوحش المفترس: «أتركها.» وتراخت القبضة التي كانت تمسك بها لحظة، قبل أن تعود فتشتد عليها بشكل أكثر عنفاً.

وقال الفتى الذي يدعى بيف مخاطباً زميله الذي خلفه مباشرة، دون أن يحوّل نظراته عن بلايد: «ابق أنت ممسكاً بالرجل العجوز وسنتدبر، أنا وفليك، أمر هذا الرجل.»

وعندما رأت قبضة أحد تينك المراهقين تشتد حول عنق آرثر، كانت قد انتبهت كذلك إلى بلايد وهو يوجه ضربة عنيفة مفاجئة إلى أقرب فتى إليه ما جعله يسقط لتوه. لتتوالى بعدها الأحداث متسارعة ما انحبست معها أنفاسها.

كانت لا تكاد تصدق ما الذي يحدث. فقد كان من نوع الأحداث التي يقرأها المرء في الصحف، والتي قد تحدث في بعض الأحياء من المدن، أو في أعماق مدينة غلاسكو حيث يكثر المراهقين والعابثين، وتصبح مثل هذه الأمور عادية، أما هنا؟ وفي هذه القرية النائية الهادئة؟

ثم إذا بآرثر ينكب ساقطاً على وجهه. ولم تعرف هي ما إذا كان ذلك نتيجة الضغط على عنقه، أم أنها أزمة قلبية، وما أن قفز الفتى الذي يمسكه إلى ميدان الصراع، حتى أدركت إيمي أن بلايد قد أقفلت أمامه فرصة النصر. إن أذى عظيماً سيحيق به، مثل تشارلي، ولم تعرف ماذا تصنع.

ولكن لم تمض دقيقة واحدة، حتى سمعت زعيق صفارة سيارة الشرطة. ولكنها كانت قد أدركت أن بلايد لم يتعلم كل فنون القتال فحسب، وإنما كان يردّ على كل أسلوب قذر كان الفتية يجابهونه به، يرد عليهم بمثله. وما أن توجه الثلاثة الذين بقوا واقفين على أرجلهم، محاولين الهرب، حتى

كانت سيارتا شرطة تقفان بالباب. فدفعها الفتى الذي كان يمسك بها، إلى الجدار بوحشية ولكن ما أن فعل ذلك حتى دخل بلايد من الباب وقد بدا الاجرام في عينيه وهو يقول له: «حاول أن تقوم بذلك. حاول فقط.» وكان قد سمّر نظراته الصاعقة في عيني بيف الشريرتين، ولكنه في نفس الوقت أشار إلى الفتى الضخم وهو يزمجر قائلاً: «هيا، إنني أريدك أن تحاول. لا بد أن هناك جمعاً من الناس ينتظرونك في الخارج ليحاسبوك على ثأر لهم عندكم...»

وعندما تسلل بيف خلفه ويده ممدودة، أدركت إيمي غرضه وهي ترى في يده سكيناً رهيبة المنظر.

«بلايد.» وبهتافها باسمه تحذره، جذبت انتباهه لحظة كانت كافية لبيف لكي يغتنم الفرصة، فقفز إلى الأمام يشق الهواء بسكينه المرهفة. فما كان من بلايد إلا أن قفز بدوره كهرّ ضخم، قفزة أنقذت حياته، وفي نفس اللحظة كان يرفس بقدمه السكين بعيداً ما جعل بيف يحملق فيه وقد تملكه الذعر. ومن ثم لكمه بلايد بشدة وعنف جعله ينبطح أرضاً وذلك في الوقت الذي اندفع فيه رجال الشرطة إلى المطعم. وهكذا انتهى كل شيء.

وهتف بها بلايد: «اجلسي يا إيمي وضعي رأسك بين ركبتيك.» وكانت هي قد وقفت لكي تتقدم نحو بلايد، ولكن ما أن بدأت الغرفة تدور بها، حتى كان هو قد أصبح بجانبها يرغمها على الجلوس على كرسي وهو يشير إلى آرثر الذي كانت حالته قد تحسنت الآن، بأن يمسك بها ريثما يحضر هو شراباً منعشاً، وسرعان ما عاد به يدفعه بين شفتيها ولم يبتعد قبل أن أخذت منه عدة جرعات.

وهمست: «بلايد... لو أنك لم تأت في الوقت المناسب...»

فقاطعها قائلاً برقة وهو يتمعن في وجهها الشاحب: «ولكنني أتيت، أليس كذلك؟ إنني سأكون دوماً بقربك عندما تكونين بحاجة إليّ، يا إيمي. ألم تعرفي هذا بعد؟ إنني أحبك، وسأحبك دوماً. ولن يغير عواطفي نحوك أي شيء تقولينه أو تقومين به تجاه هذا.»

فحملقت فيه وقد بدا الرعب على وجهها، وهي تتمتم: «بلايد...»

فقاطعها صوت يخاطبه قائلاً: «إنني آسف يا سيدي، ولكن علينا أن نوجّه إليك بعض الأسئلة إذا سمحت السيدة بذلك.» وكان المتكلم شرطياً لا يتجاوز الواحدة والعشرين من العمر قد وقف بجانبهما. وما أن استدار بلايد نحوه بضيق، حتى أمسكت إيمي بكمه لترى أنها مبقعة بالدماء. وتساءلت وهي تشعر بالغثيان عما إذا كانت هذه دماءه أم دماءهم.

وكان بلايد يجيب الشرطي قائلاً: «نعم، بالطبع، وإنني أفضل أن ننتهي من ذلك الآن.»

ومضت نصف ساعة قبل أن ينتهي رجل الشرطة وكانت إيمي، أثناء ذلك تشعر بأن بلايد يعاني من ألم شديد. وشعر هو بنظراتها إليه، فقال: «لا بأس بذلك. إنها بعض الجروح والرضوض البسيطة، ولكنني أظن أن حالة اثنين من أولئك الفتية هي أسوأ من حالتي.» ولم تستطع أن تستجيب إلى مزاحه هذا إذ ازداد شحوبها وهي ترى لون عظم وجنته يستحيل إلى الزرقة.

وجاءهما صوت آرثر يقول: «الأفضل أن تأخذها إلى البيت أيها الشاب.» وكان الرجل قد عاد إلى طبيعته رغم أن

صوته ما زال ضعيفاً. وكان يتابع قائلاً: «ليلة واحدة مريحة، ومن ثم تعود الحياة حلوة من جديد.»

تعود الحياة حلوة من جديد؟ وغمر إيمي طوفان أسود من الألم والمرارة جعلها تود لو تصرخ وتستغيث وتلقي بنفسها أرضاً. آه لو أن آرثر يعلم. أتراه يظن أن هذا هو أسوأ ما حدث لها؟ وأغمضت عينيها تبعد عنها هذه الأفكار. لشد ما كانت تتمنى لو يحدث هذا لو أنها تستطيع العودة مع بلايد زوجين إلى منزلهما دون أن يشغل بالهما سوى صورة بيف الكريهة! وغمرت روحها وحشة لا توصف، فحاولت أن تستمد العون من أعماق نفسها لكي تتمكن من التماسك خلال الدقائق القليلة المقبلة. فقالت وهي تحاول عبثاً أن تبتسم: «هذا ليس ضرورياً. لقد كان أحد رجال الشرطة، قال إنه سيصحبني إلى البيت.»

فقال بلايد بلهجة جامدة: «إنني سأصحبك إلى البيت. ولا أريد اعتراضاً يا إيمي، خصوصاً الآن وفي هذه الليلة بالذات.» وكان في ملامحه وصوته وهو يقول ذلك، ما جعلها تسكت.

وقالت بصوت خفيض: «لا بأس. سأحضر سترتي.» وعندما كانا يسيران معاً نحو السيارة، كان أكثر ما يحيرها هو أنه عرّض نفسه للموت هذه الليلة في سبيل حمايتها. وكان هذا سيكون ذنبها هي. ذلك أنه كان بإمكانها أن تتصرف بشكل أكثر حكمة، ما كان سيجنبها وضع نفسها في هذا المأزق. أترى صدر عنها كلمة أو فعل أو حتى نظرة دفعت تلك الفتية إلى القيام بذلك العمل؟ إنها لم تعد تعرف شيئاً، وربما كان الحق مع عمتها وزوج عمتها حين كانا

يعتبرانها فتاة سيئة رديئة الخلق، تقوم بحركات ملفتة للنظر.

ودخلت السيارة شاعرة بإرهاق بالغ...

قال بلايد: «لا تبدأي بالتفكير في أن الذنب في كل ما حدث، كان ذنبك.» أتراه قرأ أفكارها؟ ما أشد فطنته، وتابع قائلاً: «إن أولئك الحيوانات لا يستحقون التفكير فيهم. إن أمثالهم موجودون في كل جيل، فهم يرغبون في حيازة وتحطيم كل شيء جميل. فهم لا يصلحون لشيء مطلقاً.»

كان يتكلم ببرود ساخر. وسرت في بدنها قشعريرة وهي تتذكر كيف اقترب من بيف، ورجلا الشرطة يقودان ذلك الفتى المتوعد خارجين به، اقترب منه قائلاً بصوت منخفض مخيف النبرات وقد تجهم وجهه: «دقيقة واحدة. إذا حدث أن عدت فاقتربت مني وممن يتعلق بي، سأجعلك تتمنى لو لم تلدك أمك. هل فهمت؟» وزاد من اقترابه منه متابعاً وعيناه تقدحان شرراً: «وسأقوم بذلك على طريقتي الخاصة، هل فهمت؟ إن يدي ستطالك أينما كنت ولن تجد مكاناً في العالم تختبىء فيه، وذلك في الوقت الذي تكون متلهفاً فيه إلى الاختباء. وكم سترى السجن، عند ذاك ممتعاً.»

ولم يبد الرضى على رجل الشرطة لدى هذا التهديد، وكذلك بيف ورفاقه لم يبد عليهم السرور وهم يخرجون بسرعة كادوا يجرون معها رجال الشرطة خلفهم.

وهنا، نظرت إليه تسأله بهدوء: «هل ستؤذيهم حقاً، يا بلايد إذا هم عادوا؟»

فأجاب وهو يلقي عليها نظرة خاطفة بينما كان يدير محرك السيارة: «نعم. إنني لم أنشأ في مدينة مناجم أميركية دون أن أتعلم بعض الأساليب القذرة، يا إيمي، عدا عن القيام

ببعض الاتصالات المريبة. إنني لست فخوراً الآن، بتلك الفترة من حياتي، ولكن إذا كان عليّ أن أستعملها للمحافظة على ما يخصني، فسأفعل.» وابتسم بعبوس متابعاً: «ولكنهم لن يعودوا. إن بيف ليس من الجنون بحيث لا يدرك من هو أكثر منه جنوناً. وأنا كنت مجنوناً هذه الليلة. وعندما رأيت تلك الحشرة تمسك بك... حسناً، فلنقف عند حد القول إنني كنت سأقوم بما يلزم عند ذاك.»

فهمست بصوت متألم: «إنني آسفة يا بلايد.» فهز رأسه قائلاً: «لا حاجة بك للاعتذار، وتذكري دوماً أنك لم تقترفي أي غلطة. انسي كل الكلام الفارغ الذي غذوك به قبل أن تعرفيني، وثقي بي. إنني لا أعرف ما الذي يدور في رأسك هذا أحياناً، ولكن هناك شيئاً واحداً أعرفه وهو أن أي شيء مما حدث لم يكن ناتجاً عن خطأ منك. هذا كلام فارغ. فقد كنت بريئة تماماً، أما تصرفهم فكان ناتجاً عن جشعهم وظلمة نفوسهم. أتفهمينني؟ أتفهمينني يا إيمي؟»

فأومأت برأسها بضعف، قائلة: «نعم ما دام هذا ما تقول.»

فقال: «إنك فتاة طيبة. سآخذك الآن معي إلى بيتي لتقضي هذه الليلة. اتفقنا؟ وسأنام أنا على الأريكة إذا كان هذا ما تفضلين. أتريدين أن نتحدث بالأمر بشكل مفصل؟»

وساورها شعور بأنه لم يكن يعني بهذا ما حدث هذه الليلة، فهزت رأسها قائلة: «كلا، إنني أريد أن أنسى ذلك الأمر.»

فلم يزد. وبقي مركزاً أنظاره على طرقات المنطقة الريفية النائمة. هل كان يطهو طعام غداء يوم الأحد أمس فقط؟ ذلك الغداء الذي انتهى بالشؤم، إذ جعل بلايد يرحل غاضباً صامتاً حالما أنهيا

تناول الطعام، بينما بقيت هي بقية النهار تلفها الوحشة والسكون؟ إلى متى يستمران في هذا الوضع؟ هل ستبقى على هذه الحال والمشاعر تتناوبها حتى تدفعها إلى الانفجار بكل ما يعتمل في نفسها من آلام؟ وعند ذاك لن يعود ثمة مهرب أمامها أبداً؟ وأفضل ما يمكن أن تنتظره، عند ذاك وأسوأه هو أن يهجرها؟

وقال لها: «هيا، انزلي.» وشعرت من صوته أنه كان يحاول أن يبدو هادئاً في محاولة لاسباغ جو طبيعي على هذه الليلة الحافلة. وكان يتابع قائلاً: «هل بإمكانك صنع فنجان من القهوة بينما أغير أنا قميصي هذا؟» فنظرت إلى قميصه الذي كان يرتديه، وكان ممزقاً ملوثاً بالدم، وعاد إليها الشعور بالغثيان بينما كان هو يفتح الباب ويشير إليها بالدخول.

قالت تخاطبه: «بلايد...» ثم سكتت فجأة بينما استدار ينظر إليها متسائلاً. لشد ما هو وسيم وقوي، عقلاً وجسداً، ولشدّ ما تحبه... وعادت تقول: «أظن أن عليك أن تغسل هذه الرضوض التي تغطي وجهك. إن عينيك مغمضتان تقريباً.»

فأجاب بعدم اهتمام: «ليس ثمة مشكلة.»

فأمسكت بذراعه قائلة: «كلا، أرجوك. اجلس أنت وسأحضر أنا ماء ومنشفة. وبعد ذلك عليك أن تستحم وتبقى في الحوض فترة تنقع فيها رضوض جسدك. إن جلدك ستملأه البقع الزرقاء والسوداء.»

فقال بابتسامة ملتوية كانت تحبها: «إنني لن أجادلك في ذلك إذا أنت أحببت أن تنشغلي بيّ. لقد اشتقت إلى ذلك.»

فأشاحت بوجهها بسرعة شاعرة بغصة في حلقها.

وعندما عادت إليه بالماء والمنشفة، وجلست بجانبه

تمسح وجهه، أخذت تتمنى ان تظل قوية فلا يغلبها الضعف فتكشف نفسها...

كيف استطاعت أن تمكث بعيدة عنه كل تلك المدة؟ إنه حبيبها وزوجها كما أنها هي حبيبته وزوجته. منذ اللحظة التي تعارفا فيها شعرت بأنها له وأنه لها. لقد كان يعني، بالنسبة إليها الحياة نفسها.

لقد كان محيطاً بها وكأنه يريد أن يحميها من الغير، غير عالم بأن ما يخاف منه عليها إنما كان كامناً في كيانها. ووجدت نفسها لا تستطيع كلاماً أو تفكيراً وهي تستغرق بعد ذلك، في نوم عميق.

لم تكن متأكدة ما الذي أيقظها من نومها العميق الخالي من الأحلام ذاك. ووجدت عينيها ثقيلتين مرهقتين. وكان بلايد ما يزال نائماً من شدة ارهاقه.

وبقيت لحظة يمنعها النعاس من الحركة. ولكن ما لبث أن غمرها فيض من الاشمئزاز من نفسها. لقد عادت الآن إلى حيث كانت منذ ثلاثة أشهر، وهي على وشك أن تعود فتحطم قلبه للمرة الثانية. ولكن الأمر هذه المرة سيكون أسوأ بكثير. لقد جربت الهرب فلم ينفعها ذلك. جربت أن ترفضه فماذا حدث؟ ماذا بإمكانها أن تفعل الآن.

الفصل التاسع

هتفت به تقول: «بلايد، يجب أن أعود إلى البيت.»

فأجاب: «ليس ثمة داعٍ للعجلة، فأمامنا الليل بطوله...»

فقالت: «كلا.»

وقف وقد كسا وجهه غضب لم تر مثله من قبل: «إنني سأذهب معك أيضاً. صدقيني يا إيمي إنني ذاهب كذلك. لا أريد المزيد من المراوغة، ولا المزيد من الكلام المتناقض. أو تتحدثين إليّ هذه الليلة، وستحدثينني بكل شيء.»

فردت عليه بعصبية بلغت حد الهستيريا: «لا يمكن أن ترغمني على ذلك.» كانت خائفة فعلاً. فهذا الرجل الواقف أمامها، ببرود مخيف قد بلغ صبره النهاية.

فأجاب بصوت منخفض بعكس صوتها، ما جمد الدم في عروقها: «إن بإمكاني أن أرغمك على ذلك وأنت تعلمين هذا. لماذا رحلت، يا إيمي؟ ولا أريد منك ذلك التعليل التافه الذي لم يقنعني. فذلك لم يكن هو السبب، أليس كذلك؟ إنني سأبقى في هذا المكان أياماً أو أسابيع، أو شهوراً إلى أن أحظى بجواب. أما بالنسبة إلى جون.» وأشار بيده باحتقار وهو يتابع: «فأنت لا تهتمين له وإلا لما استطعت إظهار كل هذه العواطف والاهمية نحوي. إنني أعرفك يا إيمي، أعرفك جيداً. حاولي أن تقولي إنك لا تحبينني! قولي إنك تريدين أن تخرجيني من حياتك؟»

فوضعت يدها على فمها إذ رأته يتقدم نحوها وكأنه شبح

هائل جاء للأخذ بالثأر وذلك باستئصال قلبها من جذوره. ثم لم تعد تستطيع الاحتمال، وقبل أن يتمكن من الامساك بها، كانت قد هرعت هاربة نحو الباب ففتحته ثم اندفعت في أعماق الليل المظلم. كان عليها أن تبتعد... أن تهرب.

ولكنه أمسك بها قبل أن تجتاز باحة المنزل، ليديرها إليه بسرعة جعلتها تشعر بالدوار وهو يهزها بعنف قائلاً: «إنك ستخبرينني الآن، إنني أحبك. وهذا الحب يمنحني الحق في أن أعلم. كما أنك زوجتي. ماذا جرى للخطط التي كنا نضعها؟ الأطفال. المنزل الريفي. أن نكبر في السن معاً...»

فصرخت تقاطعه: «ولكنني لن أكبر أبداً في السن!» وأخذت تصرخ بهذه الكلمات مرة بعد مرة مخرجة بذلك كل العواطف التي حبستها في صدرها شهوراً بعد أن تخلت عن الكفاح في سبيل الاحتفاظ بالقوة والشجاعة، وهي تردد: «هل سمعت؟ إنني لن أكبر في السن، ليس أمامي سوى سنوات يبدأ بعدها جسدي هذا في الانهيار. في الوهن، في العجز، ثم بعد ذلك اعتمد على عكازتين، ومن ثم كرسي بعجلات...»

وصرخ بها: «إيمي...»

فصرخت تقاطعه بعصبية بالغة: «كلا. استمع إليّ. إن هذا ليس ماكنت تريده، أليس كذلك؟ ألا تريد أن تستمع إلى النهاية؟ حسناً، ها أنت ذا قد حصلت على ما تريد! إنني أخبرك به الآن...»

وكانت الصفعة على وجهها من الشدة بحيث أوقفت هذه الهستيريا الحادة التي جعلتها ترى كل ما أمامها بلون الدم. وما أن اتضح أمامها وجهه القاتم، حتى كانت قد أصبحت

تسير معه نحو المنزل. ولم تحاول المقاومة بعد أن لم تجد فائدة في ذلك، هذا إلى أنها تشعر الآن بالخدر والخمول إزاء فداحة ما قامت به. لقد حكمت عليه أخيراً... حكمت عليه بقضاء حياة يملؤها الألم، فإذا كانت معرفته بما سيحدث لها أكبر مما يستطيع احتماله وتركها، فإنه سيعاني من عقدة الذنب بقية حياته.

وكان هو الآن قد اجلسها على كرسي ومضى يسري عنها بصوت منخفض ملؤه الحنان قائلاً: «استرخي، يا طفلتي، استرخي. كل شيء سيكون على ما يرام. أعدك بذلك...»

فقالت: «هذا لن يكون، يا بلايد.» ولم تعرف من أين أتتها القوة على الكلام، ونظرت إلى ملامحه الخشنة التي كانت تنطق بالرقة والحنان وهي تكرر قائلة: «هذا لن يكون.» وحاولت أن تقوم عن الكرسي ولكنه أمسك بها بينما كان يقول: «مهما كان هذا الأمر، فسنواجهه نحن الاثنين يا حبيبتي. أما الآن...»

فقالت ذاهلة وقد تصلب جسدها: «بلايد، إنني مصابة بمرض سيقتلني ببطء بعد عدة سنوات.» ورفعت عينيها إلى وجهه لترى الذهول في عينيه هو الآخر وقد أصبح وجهه غاية في الشحوب، فتابعت تقول: «إنني لن أبقى جميلة... لن أكون شيئاً. في البداية لن أكون قادرة على السير، وبعد ذلك سيمتد المرض إلى بقية العضلات، وفي النهاية... سألزم سريراً في مستشفى وبعد ذلك سأموت.»

فصاح بها وهو يهزها: «اسكتي، لا تتكلمي بهذا الشكل.»

فقالت: «ولكنها الحقيقة يا بلايد. الحقيقة التي كنت تلاحقها.»

ما كان لها أن تخبره قط. وكان عقلها يصرخ بها أن كل شيء قد انتهى. إذ لن يكون في إمكانه مواجهة هذا الأمر، وما الذي يدعوه إلى ذلك؟ فهي ليست مشكلته هو... فكل معرفته بها لا تتعدى الاثني عشر شهراً. ليس من العدل أن تتوقع منه تكريس سنوات من عمره لأجلها في الوقت الذي يمكنه أن يسعد فيه ويستمتع...

«لماذا لم تخبريني؟ هل يا ترى كنت فعلت معك ما يجعلك غير قادرة على ذلك؟ ألم تكوني تثقين بي اطلاقاً؟».

فقالت بصوت خفيض: «إنني أحبك يا بلايد.»

فقال: «وهل هذا جواب؟» وكان يتنفس بعنف وهو يتابع: «تحبينني ومع ذلك تهجرينني؟ تحرمينني من الحافز الوحيد الذي يجعل للحياة أمل أعيش من أجله، ثم تقولين إن هذا حب؟»

فقالت: «بلايد...»

فقاطعها: «اسمعي الآن. عندما عدت إلى المنزل ووجدت رسالتك المختصرة تلك، كرهت الحياة يا ايمي، لم أكن أتصور قط أن من الممكن أن تفعل بي ذلك امرأة، قبل أن عرفتك وعندما عرفتك أدركت أن بإمكاني أن أثق بك تماماً. كنت متأكداً من هذا.»

فحدقت فيه دون أن تقوى على الكلام، بينما تابع يقول وهو يتنفس بعمق: «ولكنك أنت لم تثقي بي. لماذا؟»

فأجابت: «ليست هذه هي المسألة.»

فقال بهدوء رغم أن الألم والعذاب في صوته كان أبلغ من أي انفعال: «إنك هربت دون أن تمنحيني فرصة، لتواجهي هذا الأمر بمفردك. إنك نفيتني من حياتك، يا إيمي...»

فهمست ببطء: «ولكن ما عرفته عن شعورك نحو الأزهار الذابلة جعلني أحجم عن أن أطلب منك الصبر على حالتي... لم أردك أن تعطف عليّ. لم أشأ أن أثير اشمئزازك...»

فقاطعها بعصبية: «ما هذا الذي تقولينه؟ كيف أمكنك أن تفكري لحظة في... يجب أن نتحدث. وستخبرينني هذه المرة، بكل شيء.» وأجلسها على كرسي وجلس بجانبها على الأرض ينظر إليها بحنان جعل دموعها تنهمر دون شعور منها، ثم عاد يقول: «أولاً، يجب أن تعلمي بأنني أحبك. أحبك أكثر من كل شيء وكل شخص وسأحبك على الدوام. فإذا لم نجد علاجاً لمرضك هذا...» فحاولت أن تتكلم ولكنه اسكتها وهو يتابع: «إذا أخذك هذا المرض مني فسأموت أنا أيضاً. آه، أعني أنني سأستمر في الحياة ربما لعشر سنوات، لعشرين، لثلاثين، ولكنني سأكون بصفة ميت. ولكن لو تركتني الآن، فهذا ما سيحدث.»

فقالت: «إنك ستتغلب على ذلك...»

فقاطعها يسألها: «وهل كنت أنت ستتمكنين من هذا لو انعكس الوضع بيننا؟»

ولم يكن قد خطر لها هذا من قبل، فنظرت إليه بذعر، فعاد يسألها: «أخبريني، هل سيكون بإمكانك ذلك؟»

فهمست بضعف: «كلا.»

فقال بغضب: «فلماذا تفترضين بي أنا التغلب على الأمر؟ لماذا؟ هل لأنني رجل؟ أم لأنك تشكين في مقدار حبي؟»

فأجابت بضعف: «إنني واثقة من حبك، ولكن أن أطلب منك مواجهة هذا الأمر بينما أنت لست مسؤولاً...»

فقاطعها قائلاً وهو يحملق فيها كما لو كانت مجنونة:

«يا لمسؤوليتي التي تتحدثين عنها، تلك. ألا تعلمين بأنك أصبحت حياتي كلها منذ اللحظة التي قابلتك فيها؟ واننا نفس واحدة يا إيمي؟ واننا لم نعد شخصين منفصلين؟»

وكانت دموعها تنهمر على وجنتيها بغزارة بينما كان يتابع قائلاً: «إنك نصفي الآخر الذي يعرف ما أفكر فيه وما أشعر به...» وسكت فجأة ثم استطرد يقول: «أو كنت أظن أنك تعرفين ربما كنت أنا متسرعاً ومبالغاً في تصوراتي. لم آخذ في اعتباري عمق التأثير الذي كان أحدثه في نفسك شعورك القديم بانعدام الأمن. ثم، ما هو دور الأزهار في أمرنا هذا، كما تقولين؟»

فهمست تقول وشفتاها ترتجفان: «إنك كنت في المنزل تفضل الأزهار في أوج نضرتها دون أي عيب، لقد كنت تقول إنك لا تحب الذبول ولا التفسخ. وكنت ترغب في زهور جديدة نضرة على الدوام.»

فهز رأسه ببطء قائلاً: «ولكن تلك كانت أزهاراً يا إيمي، وما دخل ذوقي الغريب في الأزهار، في أي شيء؟»

فأغمضت عينيها لا تستطيع النظر إليه وهي تقول: «لقد ظننت... ظننت أنه سيكون من الصعب عليك رؤيتي أذبل ببطء وأمرض. لقد قالت ساندرا...»

فقاطعها وهو ينظر إليها بحدة: «ساندرا؟ كان يجب أن أعلم هذا. وما دخل أختك الماكرة في كل هذا؟»

فقالت: «إنها... إنك لا تعرف يا بلايد. إنها مريضة، مريضة جداً. كما سأكون أنا بعد سنوات قليلة. لقد قالت لي إنني سأكون بمثابة حجر الرحى في عنقك ومعها حق. فأنت عليك أن تعيش حياتك...»

فقاطعها بعنف: «لم أسمع في حياتي قط بمثل هذا الهراء. ولا أستطيع تصديق أنك اقتنعت بمثل تلك المبررات. ماذا حدث لعلاقتنا، ثقتنا المتبادلة، العهود في الحب في حالتي المرض والصحة؟ أتظنين أنك عندي بقيمة تلك الأزهار؟ أهكذا يا إيمي؟ إن من الممكن أن أستبدلك، بكل بساطة بامرأة أخرى ثم أتابع حياتي العادية؟ أحقاً هذه هي فكرتك عني؟»

فحملقت فيه ذاهلة، أترى هذا ما فكرت فيه حقاً؟ كلا، ليس في أعماقها، إنها تدرك ذلك الآن.

همس بألم: «إنني أحبك يا إيمي، وسأبقى على حبك سواء كنا مجتمعين أم منفصلين، العالم بدونك باهت فارغ. إنني طبعاً أراك جميلة لأنك جميلة فعلاً. ولكن هذا ليس سوى جزء صغير من حبي لك، إنني أحبك، أحب فيك قدراتك الذهنية، استقامتك، روحك المرحة، وكل الأشياء التي تكوّن شخصيتك. وإذا حصل لك غداً حادث اصطدام وتشوه شكلك إلى درجة مريعة سأهتم جداً لذلك بطبيعة الحال، ولكن ليس للسبب الذي تظنين. إن الأمر سيؤذيني لأنه قد آذاك. ولكننا سنواجه الأمر معاً. إنك الآن ستجلسين وتخبرينني بكل شيء منذ البداية. منذ اليوم الذي قمت أنا فيه بتلك الرحلة إلى فرنسا.»

«هل تريد حقاً أن تعلم؟ إن كل شيء قد تأكد وليس ثمة أمل في الشفاء. وأنا لن ألومك إذا أردت أن ترحل...»

فقاطعها عابساً: «لو كنت مكانك كنت ألومك، ذلك لأنك لي وأنا لك. ولي الحق في أن أتوقع كل شيء منك وليس من أي أحد آخر، الحب، والوفاء وكل الأشياء...»

فقاطعته بهدوء وقد تفاعل في نفسها مزيج من الفرح والألم: «ولن يكون لنا أسرة. فمرضي وراثي في الفتيات ولا...»

فقاطعها قائلاً: «إنك أنت أسرتي. لقد سبق وأخبرتك بذلك في بداية زواجنا عندما حدثتك عن أمي وأبي وأخي تود. فأنا سأكون شاكراً جداً لو كنت أنت لي ولو من دون أولاد...»

وسرعان ما انفجرت دموعها وشهقاتها تحمل كل ما كانت عانته طوال أشهر، من آلام وحدة ورعب، حتى امتلأت الغرفة بنشيج مثقل بعذابها وكربها. وكان هو من الحكمة بحيث تركها تسترسل في بكائها هذا فترة طويلة.

وأخيراً، عندما انتهت من اخباره بكل شيء، كانت الشمس قد برزت من خلف المنزل تلقي بفيض أشعتها داخل الغرفة الصغيرة.

وبعد ذلك ابتدأ يشرح لها ما يتعلق بالأزهار، قائلاً بصوت ينضح بالألم: «لم يحضر أبي لأمي أي أزهار أو هدايا طوال حياته. وكنا أنا وأخي تود، نجمع لأمنا بعض الأزهار البرية أحياناً ونحن عائدان من المدرسة. فكان وجهها يشرق سروراً. وكانت تحتفظ بها. لا تطيق رميها حتى تذبل وتتفسخ تماماً. وفيما بعد، بعد أن تركت أنا البيت، أخذت أرسل إليها باقة أزهار اسبوعياً دون اعتبار للمكان الذي أكون فيه.»

وسكت تائهاً مع الذكريات وقد كسا الألم ملامحه، فقالت له: «لا تتابع الكلام يا بلايد، فلم تعد مسألة الأزهار تهمني...»

فأجاب: «بل يجب أن أتكلم. كان يجب أن أحدثك بكل ذلك منذ أشهر، ولكنني ما زلت أجد صعوبة في الحديث عن ذلك. عن موتها، قبل أن أصل إلى المنزل من رحلة بعيدة، لكي أقضي معها نهاية الأسبوع. كانت قد ماتت في اليوم السابق لوصولي بنوبة قلبية. وفي غرفة نومها، وجدت كل باقات الزهور التي كنت أرسلها إليها، قديمها وحديثها، مصفوفة

في أنحاء الغرفة. وكنت أثناء زياراتي لها لا أدخل غرفتها أبداً فلم أكن أرى الأزهار تلك.» وهز رأسه ببطء وهو يقول: «لقد ترك منظرها مسجاة على فراشها، وكل أولئك الأزهار حولها، ترك في نفسي أثراً لن أنساه أبداً.»

فقالت برقة: «لا بد أن تلك الأزهار كانت ترسل إلى نفسها بهجة كبرى.»

فأجاب: «نعم، أظن ذلك. إنني لم أفكر في ذلك من قبل. فقد كان الأمر يبدو لي محزناً فقط.»

فقالت بهدوء: «إن الأمر يعتمد على نظرتك إلى الشيء.»

فقال: «وكذلك أكثر الأشياء.» وتابع كلامه مفكراً: «أيمكننا العودة أخيراً إلى بيتنا؟»

أجابت: «ولكن السيدة كوكس...»

فنظر إليها بجمود قائلاً: «إنها في بيتها منذ الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، وهذا ما كنت جئت إلى المطعم الليلة الماضية لأخبرك به. وقد طلبت من آرثر أن يتصل بها ليخبرها أنك معي.»

فضحكت قائلة: «إنك لم تخبرني بذلك، فقد كنت أنوي العودة إلى هناك الليلة الماضية.»

فقال عابساً: «ما كان ذلك ليحدث، لقد كان لديّ شعور بأنها الفرصة الوحيدة.»

فقالت: «هل استغللت مثل ذلك الوضع؟»

فأجاب: «نعم. فقد كنت مستميتاً في سبيل ذلك. والآن ها أنت ذي ذاهبة إلى بيتك، يا سيدة فوربس.»

الفصل العاشر

كان قد مضى على عودتها إلى منزلهما ثلاثة أيام عندما اضطر بلايد إلى القيام برحلة عمل لم يكن بإمكانه إلغاؤها. لقد أصبحت أيامهما معاً حلوة، وكل لحظة كانت ثمينة عنيفة يتخللها معرفتهما بأن عليهما أن يركزا كل الحب الذي تحفل به الحياة، في سنوات قليلة.

كانت إيمي جالسة مساء في الحديقة، تراقب باهتمام ناعس، حشرة تجمع اللقاح من جوف زهرة. ما أغرب ذلك الشعور الذي تملكها منذ ألقت بعبء مرضها على كاهل بلايد. لم تكن سعيدة بالضبط، ذلك أنها لم تتعوّد بعد على فكرة ما عليها مواجهته، وإنما نوع من الاستسلام الهادىء قد غلف أحاسيس الرعب والألم في نفسها مصحوباً بشعور من البهجة لكونها حية ترزق. ذلك أن بلايد كان لا يفتأ يصر عليها بأن تدع المستقبل وشأنه ولا تفكر إلا باللحظة التي هي فيها. ونظرت إلى ساعتها الذهبية، إنها التاسعة. وفكرت في بلايد الذي سيكون هنا غداً في مثل هذا الوقت... لشد ما تفتقده رغم أنه ترك المنزل الساعة السادسة هذا الصباح فقط. وأغمضت عينيها حالمة وهي تفكر في مقدار حبه لها. كان أكثر مما كانت تتصور. وتملكتها الحسرة وهي تتمنى لو أن ليس عليها أن تتركه وحده بهذه السرعة. لقد بدت لها السنوات القليلة القادمة قصيرة إلى حد مؤلم، وكان علمها بذلك صعباً جداً، فلو أن الأمر قد حدث فجأة دون علم مسبق، فلربما...

وأفاقت من غفوة اعترتها على صوت رقيق يقول: «مرحى للجمال النائم.» ففتحت عينيها لترى عيني بلايد تحدقان فيها وهو يهتف: «أوه يا إيمي، يا حبي...»

قالت له محتجة: «لم يكن من المفروض أن تأتي قبل مساء الغد.» ونظرت إليه بقلق. كان يبدو غريباً وكأن شيئاً ما يغلي في داخله موشكاً على الانفجار. وأجابها بصوت مرتجف: «إن لديّ خبراً لك.» ولكن نظرة منها إلى وجهه طمأنتها إزاء الذعر المفاجىء الذي انتابها. من غير الممكن أن يكون الخبر سيئاً وهو ينظر إليها بهذا الشكل، وقال: «اجلسي أولاً، ولا تقولي شيئاً قبل أن أنهي حديثي. أتعدينني بذلك؟» ولما أومأت ايجاباً، تابع يقول: «لقد ذهبت لرؤية ساندرا.»

فهتفت به: «بلايد. لقد سبق ووعدتني بألا تفعل هذا قبل أن أتمكن من التعود على الأمر.»

فأجاب بهدوء: «لا يلزمك ذلك. لم يكن في نيتي أن أخبرك بشيء من ذلك، كنت فقط أريد أن أعرف التفاصيل، أقابل الأطباء، أشياء كهذه. لم أكن أريد أن يبقى شيء خافياً عليّ...» وسكت فجأة، ثم أخذ ينظر في عينيها المضطربتين وعاد يقول: «إنك لست مريضة. ولن تصابي بالمرض.»

«ماذا؟ ما هذا الذي تقوله يا بلايد؟»

فأجاب: «قلت إنك لست مريضة، يا إيمي. لقد تأكدت من الأمر. لم أكن أنوي أن أخبرك بالأمر بهذا الشكل، وإنما تدريجياً منعاً للصدمة.» وكاد طنين أذنيها يصيبها بالصمم. ولكنها قاومت شعور الاغماء الذي انتابها، ومالت نحوه وهي ترتجف. هذا غير ممكن، لا شيء من هذا

صحيح... إنه أجمل من أن يتحقق، مثله مثل تلك الآمال والأحلام التي اعتادت أن تراها في الشهور الأخيرة.

«دعيني أخبرك بكل شيء من البداية.» فأومأت صامتة وقلبها يخفق. يجب أن لا تنساق مع الأمل دقيقة واحدة. لا بد أن في الأمر خطأ. إنها واثقة من ذلك.

قال: «ذهبت بالطائرة هذا الصباح إلى اسكوتلندا مباشرة بعد أن أخذت موعداً أمس من زوج ساندرا. لقد رفضت هي رؤيتي، ولكنني، بعد ما سبق واخبرتني أنت عن سابق تصرفها معك، لم أكن منتظراً منها الكثير. وهكذا تغدينا أنا وزوجها جيم في الفندق القريب من منزلهما. وهو رجل طيب. إيمي. أيهمك كثيراً كون ساندرا شقيقة لك؟»

فانتفضت تحدق في وجهه قائلة: «ماذا؟ آه، لا أدري. لا يهمني هذا في الحقيقة بعد كل ما حدث.»

فقال: «حسناً، إنها لا تقرب لك أبداً. وقد يؤلمك قليلاً أن تعلمي أن من تعتبرينهما والديك لم يكونا كذلك حقاً.»

فحملقت فيه متسعة العينين وهي تهتف: «بلايد، أنا لا أفهم شيئاً.»

فقال: «إذن، دعيني أوضح. يبدو أنه بعد ولادة ساندرا بثلاث سنوات، اكتشف الوالدان مرض الأم بعد ان ابتدأت أعراضه تظهر. وكانا يريدان أطفالاً أكثر ولكن هذا طبعاً أصبح مستحيلاً. وهكذا اكتفيا بساندرا فدللاها لدرجة بالغة وأعطياها كل ما كانت تطلب. وعندما أصبحت ساندرا في السابعة حملت صديقة للأم. بعد أن كان الأطباء قد منعوها من ذلك خوفاً عليها من خلل في قلبها قد يؤدي إلى وفاتها، وكما توقع الأطباء، لم تحتمل تلك المرأة، والتي

هي والدتك، آلام الولادة فتوفيت. أما والدك فكان قد توفي قبل ولادتك بثلاث أشهر في حادث سير. إزاء هذا الوضع، رأت والدة ساندرا أن تأخذك وتربيك. وكان الجميع سعداء ما عدا ساندرا. ويبدو أنك كنت حتى في ذلك الوقت، باهرة الجمال حسب ما كانت والدة ساندرا تتمنى على الدوام. ومما أخبرني به جيم، علمت ان ساندرا أهملها أبواها عند ذاك، وذلك بقسوة غير عادية. وأظن أن هذا المرض يورث عدم توازن في العقل. فساندرا تعاني من ذلك الآن ولا بد أن أمها كانت كذلك.»

فقالت إيمي وهي ترتجف: «آه يا بلايد، ما أفظع هذا.»

فقال: «نعم. إنها قسوة الانسان على الانسان. ان جيم يعرف أن عقل ساندرا مريض، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يصدق ما كانت قالته لك. ويبدو أنها عندما سألها عن السبب في أنك تركت المنزل باكية، في ذلك الحين، يبدو أنها أخبرته كاذبة بأن ذلك كان لحزنك عليها. إن الكراهية تأكل قلبها، يا إيمي، ولكن زوجها باقٍ معها إلى النهاية. إنه من ذلك النوع الوفي من الرجال.» ونظر إليها لحظة ثم سألها: «أتحبين أن تري صورة لأمك؟»

فأشرق وجهها قائلة: «هل عندك واحدة؟»

فأخرج من جيبه صورة وناولها إياها. فنظرت إلى الوجه الجميل الباسم وقد اقشعر جسدها وهي تهتف: «إن هذه صورتي أنا.» وبقيت تحدّق في الصورة ذاهلة، فهزها بلطف قائلاً: «أتدركين ما يعنيه هذا، يا إيمي؟ إن المستقبل قد عاد لنا الآن بكل ما نريد. لا كوابيس بعد اليوم ولا أحلام سيئة. إنك ستعودين إلى نفسك مرة أخرى.»

فرفعت رأسها تحدق في عينيه السوداوين قائلة: «ولكنني لم أعد أعرف من أنا. ما أغربه من شعور، يا بلايد.»

اجابها برقة: «إنك زوجتي، وستكونين أم أطفالنا. إن لك هويتك المكونة من كل الأشياء التي كونت شخصيتك. إنك شجاعة وقوية وخالية من الأنانية إلى درجة لا تصدق. إنك جميلتي الرائعة التي أحبها أكثر من حياتي.»

وشعرت بالدموع تحرق وجنتيها دون أن تعرف سبب بكائها. ربما كان لأجل والديها اللذين لم يكونا والديها حقاً، وأختها التي لم تكن أختها. ولكن ما لبث أن انبثق من خلال دموعها روعة الادراك كالشمس الباهرة. لقد كانت تبكي أيضاً لشعورها بالنجاة، بالشكر والامتنان العميق لأنها عادت إلى بيتها في النهاية. لقد كان بلايد هو كل ما لها في الحياة، وقد كان هذا منذ اللحظة التي تعارفا فيها. لقد كان مكملاً لذاتها.

وفجأة، قالت هاتفة وهي تبكي وتضحك في وقت واحد: «سيكون لنا أطفال يا بلايد. أطفال أصحاء رائعون. العديد من الأطفال.»

فنظر إليها بعينين متألقتين وهو يجيب: «إيمي، حبيبتي، يا حبي ويا أجمل ما في حياتي.»

تمت